دعائم المجتمع الفاضل

في ضوء قصة سليمان عليه السلام

كما تصوره سورة النمل

دكتور

محمد إبراهيم عبد الحليم محمد

مدرس التفسير وعلوم القرآن

بجامعة الأزهر

مُقَدِّمَة

الحمد لله، والصلاة والسلام على سيدنا محمد رسول الله، وعلى آله وصحبه ومن والاه.

أما بعـــــد،،،

فإن الإسلام قول وعمل. فكر وسلوك. عقيدة ومنهاج. شرعة وحكم. ديـــن ودنيا.

وقد أمر الله تعالى الإنسانيةَ جمعاء أن تقيم حياتها على منهج الإسلام. فقال سبحانه ﴿ قُلْ إِنَّ صَلاَتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ* لاَ شَـــرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَاْ أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ*﴾ الأنعام (١٦٢، ١٦٣).

ومدح الذين يعملون على تحقيق هذا المنهج، ووعدهم بالغلبة والانتـــصار. فقال سبحانه ﴿وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ* الَّذِينَ إِن مَّكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنكَرِ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ*﴾ الحج (٤٠، ٤١).

﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُم فِـــي الْـــأَرْضِ كَمَـــا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّن بَعْـــدِ خَوْفِهِمْ أَمْناً يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئاً وَمَن كَفَرَ بَعْـــدَ ذَلِـــكَ فَأُوْلَئِـــكَ هُـــمُ الْفَاسِقُونَ*﴾ النور (٥٥).

وأمر عباده المؤمنين ببناء المجتمع النبيل، وإقامة الحضارة الإنسانية علـــى العلم والإيمان، وحسن الصلة بالله تعالى.

وقد ساق سبحانه ذلك في كثير من آيات القرآن الكريم سوقاً نظرياً مجرداً. ثم أورده محققاً في ملك سليمان عليه السلام لنرى هذه الصفات حقائق ماثلة للعيان في معالم ملكها الشامخ، فنحتذي حذوها على بصيرة. فإذا لم نبلغ هذا المثال ــ ولن نبلغه ــ فلنحقق منه ما تتسع له الطاقة.

والقرآن لا يقف بنا عند حد الترسيم، والوصف النظري لمقومات الملك. وإنما يريد منا ملكاً عملياً، ودولة نموذجية. ولهذا قص علينا فيما قص من قصص الأولين ــ في سورة النمل ــ قصة سليمان عليه السلام ليصوغ لنا ــ من خلالها ــ ملامح المجتمع الفاضل. وليبرز صفات الأمة التي تقوم على منهج الله تعالى، وليؤكد على أن نشر الحضارة الصالحة إنما هو الهدف المنشود من رسالة الإسلام، وبعثة المرسلين. وأن مقومات المجتمع الفاضل إنما هو تعانق العلم والإيمان، مع التسلح بالقوة، ونشر العدل والمساواة بين العالمين.

فقصة سليمان عليه السلام ــ في سورة النمل ــ إنما جاءت لتضرب لنا مثالاً حياً لأمة أقامت حياتها على منهج الله؛ عاشت للإسلام وبالإسلام، فكتب الله لها الغلبة، ولأبنائها الريادة. وأمست مرهوبة الجانب؛ يرجى خيرها، وينشد برها. وباتت دعوتها تؤتي ثمرتها بإذن ربها.

وقد عزمت على تناول هذه القصة بالدراسة، لأبرز ــ من خلالها ــ دعائم المجتمع النبيل، ومقومات الحضارة الفاضلة.

وقد قسمت هذا الدراسة إلى مقدمة، وتمهيد، ومبحثين، وخاتمة.

ذكرت في المقدمة خطة البحث، وبيان منهجي في هذه الدراسة. وتحدثت في التمهيد ــ بإيجاز ــ عن القصة القرآنية، والحكمة من ذكرها، وتكرارها في آيات القرآن الكريم.

وأما المبحث الأول: فقد عرضت فيه قصة سليمان عليه السلام كما صورها القرآن الكريم في سورة النمل، مع تفسير آياتها تفسيراً موضوعياً.

ثم ذكرت في المبحث الثاني أهم الدعائم الأصيلة، والركائز القويمة للمجتمع الفاضل، من خلال القصة الكريمة.

وأما الخاتمة: فقد ذكرت فيها أهم النتائج المستخلصة من هذا البحث.

وقد كان منهجي في هذا الدراسة على النحو التالي:

قمت ــ أولاً ــ بعرض قصة سليمان عليه السلام كما صورها القرآن الكريم في سورة النمل، وجعلت لكل مشهد من مشاهد أحداثها عنواناً يناسبه. ثم قمت بتفسير آياتها تفسيراً موضوعياً، مع بيان معاني بعض الألفاظ التي تحتاج إلى بيان، والإشارة إلى أهم ما ترشد إليه الآيات من دلائل وعبر.

ثم قمت ثانياً ــ بإبراز أهم الدعائم الأصيلة، والركائز القويمة للمجتمع الفاضل ــ من خلال هذه القصة الكريمة ــ وتحدثت عن كل دعامة منها على حدة، وذلك بإبراز أهميتها، وبيان أثرها في تقدم المجتمع ونهضته، مشيراً إلى مكانتها في الإسلام. مستشهداً بالآيات، والأحاديث، وأقوال العلماء. مستعيناً على ذلك بكتب التفسير والحديث، وغير ذلك من كتب الثقافة الإسلامية.

أسأل الله العظيم رب العرش الكريم أن يعفو عني سهوي وتقصيري. وأن يجعل هذا العمل خالصاً لوجهه الكريم. وأن ينفع به. إنه ولي ذلك والقادر عليه. وصلى الله على سيدنا محمد، وعلى آله وصحبه وسلم.

دكتور/ محمد إبراهيم عبد الحليم محمد

كلية الدراسات الإسلامية والعربية

بنات ــ بني سويف

تمهيد

القصة في القرآن الكريم

تعريف القصة

القصة في اللغة: مصدر قص. والقص: تتبع الأثر. وأصل القصص المتابعة. يقال: قصصت أثره: أي تتبعته. ومنه قوله تعالى﴿ فَارْتَدَّا عَلَى آثَارِهِمَا قَصَصاً﴾ الكهف (٦٤) أي رجعا يتتبعان الأثر الذي جاءا منه. وقوله ﴿ وَقَالَتْ لِأُخْتِهِ قُصِّيهِ فَبَصُرَتْ بِهِ عَن جُنُبٍ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴾ القصص آية (١١).

والقصة: الخبر والحديث. والقصص: الأخبار المتتابعة، وإتباع الخبر بعضه بعضاً. قال تعالى ﴿ إِنَّ هَـذَا لَهُوَ الْقَصَصُ الْحَقُّ وَمَا مِنْ إِلَـهٍ إِلاَّ اللّهُ وَإِنَّ اللّهَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ آل عمران آية (٦٢).

وسميت الحكاية قصة، لأن الذي يقص حديثها يذكر أجزأها جزأ فجزأ [١].

وأما القصة في الاصطلاح: فهي الإخبار عن حادثة غائبة عن المُخبَرِ بها.

وقصص القرآن: أخباره عن أحوال الأمم الماضية، والنبوات السابقة، والحوادث الواقعة[٢].

والقصص القرآني كله حق، لا خيال فيه، ولا كذب، ولا افتراء، لأنه كلام العليم الخبير. وهو يحكي أموراً واقعة، مفاهيمها صادقة. وجميع الأسماء الواردة فيه معبرة عن ذوات حقيقية.

---

(١) راجع ((الصحاح في اللغة)) للجوهري ١٠٥١/٣ ((لسان العرب)) لابن منظور ٧٣/٧.

(٢) ((اللآلئ الحسان في علوم القرآن)) للشيخ موسى شاهين لا شين (٢٥٨) ((مباحث في علوم القرآن)) لمناع القطان (٢٧٢).

أنواع القصص القرآني

القصص القرآني ركن من أركان الدعوة، ووسيلة من وسائلها، وحجة من حججها. ولذلك فإننا نراه شغل جزأ كبيراً من القرآن.

وقد جاء القصص في القرآن على ثلاثة أنواع:

النوع الأول: قصص الأنبياء عليهم السلام، وما يتعلق بأحوالهم، وما كان من شأنهم مع أقوامهم. وبيان المعجزات التي أيدهم الله بها. وعاقبة المؤمنين بهم. وبيان ما حل بالمعاندين من أقوامهم.

ويلحق بهذا النوع ما جاء من قصص أشخاص أو أشياء تابعة لقصة نبي من الأنبياء، كقصة إبليس وابني آدم، التابعتين لقصة آدم عليه السلام وقصة والخضر، وقصة قارون، التابعتين لقصة موسى عليه السلام.

النوع الثاني: قصص يتعلق بغير الأنبياء. وهو قصص يتعلق بحوادث غابرة، وأشخاص لم تثبت نبوتهم، كقصة أهل الكهف، وذي القرنين، ولقمان، وطالوت وجالوت، وغير ذلك.

النوع الثالث: قصص يتعلق بالحوادث التي وقعت في زمن نزول القرآن الكريم على قلب محمد ﷺ وذلك مثل أحداث الهجرة، ووقائع غزوة بدر، وأحد، والخندق، ونحو ذلك[1].

****

(١) ((اللآلئ الحسان)) (٣٠٦) ((مباحث في علوم القرآن)) (٢٧٤).

الحكمة من ذكر القصص القرآني

إذا نحن استعرضنا القصص القرآني، فلن نستطيع أن نقف على كل أغراضه. وكل ما نستطيعه هنا أن نذكر أهم هذه الأغراض، وأوضحها. فإليك ذلك:

الحكمة الأولى: إثبات الوحي والرسالة، والدلالة على صدق النبي ﷺ في دعوته، وفيما أخبر به. لأن هذا القصص من أخبار الغيب، ولم يثبت أنه ﷺ تلقى شيئاً من ذلك عن أهل الكتاب. فورود هذا القصص في القرآن على ما فيه من دقة وإسهاب، دليل على إثبات الوحي، وصدق رسالة النبي ﷺ قال تعالى ﴿ تِلْكَ مِنْ أَنبَاء الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ مَا كُنتَ تَعْلَمُهَا أَنتَ وَلاَ قَوْمُكَ مِن قَبْلِ هَـذَا﴾هود(٤٩).

الحكمة الثانية: إيضاح أسس الدعوة. وبيان أصول الشرائع التي بعث بها الأنبياء عليهم السلام. والدلالة على أن دعوة النبي ﷺ متفقة في أصولها مع دعوة من سبقه من الأنبياء والمرسلين. وأن الدين كله ــ من عهد آدم عليه السلام إلى عهد محمد ﷺ ــ من عند الله تعالى. وأن المؤمنين كلهم أمة واحدة. فلا عذر لمن أعرض، واتبع هواه. وفي ذلك يقول تعالى ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ* ﴾ الأنبياء(٢٥).

الحكمة الثالثة: بيان أن وسائل الأنبياء في الدعوة إلى الله تعالى موحد. وأن استقبال أقوامهم لهم متشابه. وأن سنة الله في إهلاك الظالمين واحدة.

الحكمة الرابعة: الاطلاع على أحوال الأمم السابقة. وإعلام النبي ﷺ والمسلمين بأحوالهم، والإفادة من تجاربهم، وأخذ العبرة منهم. ليكون لديهم

الحجة على معارضة أهل الكتاب، وتحديهم في تعنتهم. ولهذا قال تعالى ﴿ فَإِن كُنتَ فِي شَكٍّ مِّمَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ فَاسْأَلِ الَّذِينَ يَقْرَؤُونَ الْكِتَابَ مِن قَبْلِكَ لَقَدْ جَاءكَ الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلاَ تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ* ﴾ يونس (٩٤) ﴿ وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُواْ لَسْتَ مُرْسَلاً قُلْ كَفَى بِاللّهِ شَهِيداً بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِندَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ* ﴾ الرعد (٤٣) ﴿ قُلْ فَأْتُواْ بِالتَّوْرَاةِ فَاتْلُوهَا إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ* ﴾ آل عمران (٩٣).

الحكمة الخامسة: توسيع علم المؤمنين، بإعلامهم بسعة العالم، وعظمة الأمم، والاعتراف بمزاياها، لتدفع عنهم وصمة الغرور. ولتبعث فيهم همة السعي إلى قيادة الدنيا، وسيادة الكون، وريادة العالم.

الحكمة السادسة: تثبيت فؤاد النبي ﷺ والمؤمنين. وغرس الثقة في نصر الله تعالى، للمضي في طريق الدعوة، والصبر على ما يلاقونه من أذى واضطهاد.

ولهذا قال تعالى ﴿ مَا يُقَالُ لَكَ إِلَّا مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِن قَبْلِكَ إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ وَذُو عِقَابٍ أَلِيمٍ* ﴾ فصلت (٤٣) ﴿وَكَأَيِّن مِّن نَّبِيٍّ قَاتَلَ مَعَهُ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُواْ لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللّهِ وَمَا ضَعُفُواْ وَمَا اسْتَكَانُواْ وَاللّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ* وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ إِلاَّ أَن قَالُواْ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ* فَآتَاهُمُ اللّهُ ثَوَابَ الدُّنْيَا وَحُسْنَ ثَوَابِ الآخِرَةِ وَاللّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ* ﴾ آل عمران (١٤٦ ــ ١٤٨).

الحكمة السابعة: تمكين العظة والعبرة للمؤمنين والكافرين جميعاً. فقد اشتمل القصص القرآني على كثير من العظات والعبر التي تؤثر في النفوس العاقلة، فتدفع الكافرين إلى الإيمان ــ لئلا يصيبهم مثل ما أصاب من كان قبلهم من الكافرين والمعاندين ــ وتدفع المؤمنين إلى زيادة التمسك بدينهم، والتفاني

في نشر تعاليمه، وتحمل الأذى في سبيله، لينالوا من النعيم ما أعد لهم ولأمثالهم من السابقين.

الحكمة الثامنة: تنبيه أبناء آدم عليه السلام إلى غواية الشيطان، وإبراز العداوة الخالدة بينه وبينهم. وإبراز ذلك عن طريق القصة أروع وأقوى، وأدعى إلى الحذر الشديد من هذا العدو الذي لا يريد بالناس إلا الشر[1].

****

تكرار القصة وتجزئتها

ينقسم القصص القرآني من حيث استيفاء القصة في مكان واحد، أو توزيعها إلى نوعين.

النوع الأول: قصة جاءت مستوفاة في مكان واحد من سورة واحدة، فلم تتكرر، وإنما ذكرت في موضع واحد من القرآن الكريم. سواء أكانت متعلقة بجانب واحد ــ كقصة ذي القرنين، وأصحاب الجنة ــ أم كانت متعلقة بجوانب متعددة، كقصة يوسف عليه السلام.

النوع الثاني: قصة تكررت أحداثها، ووزعت أجزاؤها في سور متعددة من سور القرآن الكريم. وهذا النوع هو الغالب في قصص الأنبياء والمرسلين.

ومن أبرز حكم هذا النوع

- تمكين العظة والعبرة. فهو بالخطب والمواعظ أشبه منه بالتأليف.

---

(١) راجع ((اللآلئ الحسان)) (٣١٩) ((التحرير والتنوير)) للطاهر بن عاشور ٦٦/١ ((مباحث في علوم القرآن)) (٢٧٤) ((التصوير الفني في القرآن)) للأستاذ سيد قطب(١٤٤ـ١٥٥).

- بيان بلاغة القرآن. لأن القصة في القرآن ترد في كل موضع بأسلوب مختلف، يتمايز عن الآخر، ولا يمل السامع من تكرارها، بل يتجدد له معان لا تحصل له في المواضع الأخرى.
- إظهار قوة إعجاز القرآن. لأن إيراد القصة الواحدة في صور متعددة، مع عجز العرب عن الإتيان بصورة منها أبلغ في التحدي والإعجاز.
- الاهتمام بشأن القصة، أو الجانب المكرر منها. لأن التكرار طريق من طرق التأكيد.
- تجنب التطويل في الحكاية الواحدة. فيقتصر القرآن على مواضع العبرة من القصة، فيحصل من مفترق مواضعها كمال القصة، أو كمال المقصود منها[1].
- اختلاف الغاية التي تساق من أجلها القصة، فتذكر بعض معانيها الوافية في مقام، وتبرز معان أخرى في سائر المقامات، حسب اختلاف مقتضيات الأحوال.

الفرق بين القصص القرآني وغيره من القصص

يختلف القصص القرآني عن غيره من القصص؛ من حيث الموضوع، وسرد القصة، والهدف منها، ونظم أسلوبها. فالقرآن يتخير من الموضوعات ما فيه العظة والعبرة، وأما غيره من القصص فإنه لا يهتم بذلك ـ في الغالب ـ

---

(١) ((اللآلئ الحسان)) (٢٩٦) ((مباحث في علوم القرآن)) (٢٧٥) ((التحرير والتنوير)) ٦٤/١.

وكثيراً ما يكون موضوعه شريراً، يبعث على الرزيلة، ويدعو إلى الانحراف.

ثم إن القرآن لا يعني بسرد حوادث القصة سرداً تاريخاً، بقدر عنايته بأثر كل جزئية من جزئياتها، وما يترتب عليها من منافع ومن مضار. لأنه يعمد إلى المقاصد والأهداف، لا إلى إثارة العواطف الانفعالات.

والقرآن يخاطب العقل والعاطفة معاً، ويعطي لكل واحد منهما ما يناسبه. بخلاف القصاصين الذين لا يعنون إلا بالتلاعب بالعواطف، وإثارة الانفعالات، التي لا هدف لها سوى التسلية، وقتل النفس[1].

والقرآن الكريم كتاب دعوة دينية قبل كل شيء. والقصة إحدى وسائله، لإبلاغ هذه الدعوة وتثبيتها. شأنها في ذلك شأن الصور التي يرسمها للقيامة، وللنعيم والعذاب. وشأن الأدلة التي يسوقها على البعث، وعلى قدرة الله. وشأن الشرائع التي يفصلها، والأمثال التي يضربها[2].

****

---

(١) راجع ((اللآلئ الحسان)) (٢٨٣، ٣١٩).

(٢) ((التصوير الفني في القرآن)) (١٤٣).

المبحث الأول

قصة سليمان عليه السلام

كما صورها القرآن في سورة النمل

من نعم الله على داود وسليمان

يخبر الله تعالى عما أنعم به على عبديه؛ داود وسليمان – عليهما السلام – من النعم الجزيلة، والمواهب الجليلة، والصفات الجميلة. وما جمع لهما من الملك العام، والتمكين التام في أمور الدنيا والدين. ويعقب عليه بذكر ما قاما به من شكر هذه النعم. فيقول تعالى:

﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ عِلْماً وَقَالَا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي فَضَّلَنَا عَلَى كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ* ﴾

هذه هي إشارة البدء، وإعلان الافتتاح في هذه القصة. خبر تقريري عن أبرز النعم التي أنعم الله تعالى بها على داود وسليمان عليهما السلام.

وتبدأ القصة بتلك الإشارة، لتبرز لنا قيمة العلم، وعظم المنة به.

فقد أوتي داود وسليمان عليهما السلام من الملك والحكم ما لم يؤت غيرهما، ولم يكن شكرهما على الملك كشكرهما على العلم. حيث شكرا على العلم، وجعلاه أساس الفضل، ولم يعتبرا ما دونه من الملك، الذي لم يؤته غيرهما.

فأما داود عليه السلام فقد ورد تفصيل ما آتاه الله تعالى في سور أخر من سور القرآن الكريم. ومن ذلك تعليمه الترتيل بمقاطع الزبور، ترتيلاً يتجاوب به الكون من حوله، لحلاوة صوته، وحرارة نبراته، فتؤب الجبال معه والطير.

قال تعالى ﴿وَآتَيْنَا دَاوُودَ زَبُوراً﴾ النساء (١٦٣) ﴿ وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُودَ الْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَالطَّيْرَ وَكُنَّا فَاعِلِينَ*﴾ الأنبياء (٧٩) ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُودَ مِنَّا فَضْلاً يَا جِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُ وَالطَّيْرَ﴾ سبأ (١٠) ﴿إِنَّا سَخَّرْنَا الْجِبَالَ مَعَهُ يُسَبِّحْنَ بِالْعَشِيِّ وَالْإِشْرَاقِ* وَالطَّيْرَ مَحْشُورَةً كُلٌّ لَّهُ أَوَّابٌ*﴾ ص (١٨، ١٩).

ومن ذلك تعليمه صناعة الدروع، وعدة الحرب، وتطويع الحديد له، ليصوغ منه ما يشاء. قال تعالى ﴿وَعَلَّمْنَاهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَّكُمْ لِتُحْصِنَكُم مِّن بَأْسِكُمْ فَهَلْ أَنتُمْ شَاكِرُونَ﴾ الأنبياء(٨٠).﴿ وَأَلَنَّا لَهُ الْحَدِيدَ* أَنِ اعْمَلْ سَابِغَاتٍ وَقَدِّرْ فِي السَّرْدِ وَاعْمَلُوا صَالِحاً إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ سبأ (١٠، ١١).

ومن ذلك استخلافه في الأرض، وتقوية ملكه، وإيتائه الحكمة، وتعليمه القضاء والفصل بين الناس. قال تعالى ﴿ يَا دَاوُودُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَى فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا نَسُوا يَوْمَ الْحِسَابِ﴾ ص(٢٦).﴿ وَشَدَدْنَا مُلْكَهُ وَآتَيْنَاهُ الْحِكْمَةَ وَفَصْلَ الْخِطَابِ﴾ ص(٢٠). ﴿وَآتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُ مِمَّا يَشَاءُ﴾ البقرة(٢٥١).

وأما سليمان عليه السلام فقد ورد في هذه السورة تفصيل ما علمه من منطق الطير ــ وهو شيء لم يعطه الله تعالى غيره من البشر ــ وما آتاه من مملكة عظيمة شملت الإنس والجن والطير.

كما ورد تفصيل ما آتاه الله تعالى في سور أخر من سور القرآن الكريم؛ من ذلك تعليمه القضاء، والفصل بين الناس. قال تعالى ﴿وَدَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِي الْحَرْثِ إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ الْقَوْمِ وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَاهِدِينَ* فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ وَكُلًّا آتَيْنَا حُكْماً وَعِلْماً﴾ الأنبياء (٧٨، ٧٩).

ومن ذلك توجيه الرياح المسخر له بأمر ربه، وانقياد الجن والشياطين لـــه، والعمل بأمره. قال تعالى﴿ قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكاً لَّا يَنبَغِي لِأَحَدٍ مِّـــنْ بَعْدِي إِنَّكَ أَنتَ الْوَهَّابُ* فَسَخَّرْنَا لَهُ الرِّيحَ تَجْرِي بِأَمْرِهِ رُخَاء حَيْـــثُ أَصَـــابَ* وَالشَّيَاطِينَ كُلَّ بَنَّاء وَغَوَّاصٍ* وَآخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِي الْأَصْفَادِ* هَذَا عَطَاؤُنَا فَامْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ* وَإِنَّ لَهُ عِندَنَا لَزُلْفَى وَحُسْنَ مَآبٍ﴾ ص (٣٥ ــ ٤٠).

﴿وَلِسُلَيْمَانَ الرِّيحَ عَاصِفَةً تَجْرِي بِأَمْرِهِ إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا وَكُنَّـــا بِكُلِّ شَيْءٍ عَالِمِينَ* وَمِنَ الشَّيَاطِينِ مَن يَغُوصُونَ لَهُ وَيَعْمَلُونَ عَمَـــلاً دُونَ ذَلِـــكَ وَكُنَّا لَهُمْ حَافِظِينَ﴾ الأنبياء (٨١، ٨٢).

﴿وَلِسُلَيْمَانَ الرِّيحَ غُدُوُّهَا شَهْرٌ وَرَوَاحُهَا شَهْرٌ وَأَسَلْنَا لَهُ عَيْنَ الْقِطْـــرِ وَمِـــنَ الْجِنِّ مَن يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِ وَمَن يَزِغْ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنَا نُذِقْهُ مِـــنْ عَـــذَابِ السَّعِيرِ* يَعْمَلُونَ لَهُ مَا يَشَاءُ مِن مَّحَارِيبَ وَتَمَاثِيلَ وَجِفَـــانٍ كَـــالْجَوَابِ وَقُـــدُورٍ رَّاسِيَاتٍ اعْمَلُوا آلَ دَاوُودَ شُكْراً وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ* فَلَمَّا قَـــضَيْنَا عَلَيْـــهِ الْمَوْتَ مَا دَلَّهُمْ عَلَى مَوْتِهِ إِلَّا دَابَّةُ الْأَرْضِ تَأْكُلُ مِنسَأَتَهُ فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ الْجِـــنُّ أَن لَّوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ الْغَيْبَ مَا لَبِثُوا فِي الْعَذَابِ الْمُهِينِ﴾ سبأ (١٢ ــ ١٤).

فقد أوتي داود وسليمان عليهما السلام من الملك والحكم ما لم يؤت غيرهما. ولكن الله تعالى يخص العلم ــ هنا ــ بالذكر، ويخصه داود وسليمان بالـــشكر. لأن العلم هو القيمة العليا التي تستأهل الذكر والشكر. والملك لا يذكر في صدد الحديث عن العلم، لأن الملك أصغر من أن يذكر في هذا المجال[1].

وفي ذلك أوضح دليل على فضل العلم، وعلو مرتبته، وشرف أهله، وتقديم

---

(١) ((في ظلال القرآن)) للأستاذ سيد قطب ٢٦٣٣/٥.

حملته. وأنه أفضل من الملك. وأن نعمة العلم من أجل النعم، وأجزل القسم. وأن من أوتي العلم، فقد فضل على كثير من عباد الله المؤمنين[1].

****

وقبل أن تنتهي الآية يأتي شكر داود وسليمان عليهما السلام على هذه النعمة. وإعلان قيمتها، وبيان قدرها العظيم. فيقول تعالى:

﴿ وَقَالَا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي فَضَّلَنَا عَلَى كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ* ﴾

أي فضلنا بالعلم. الذي أشار إليه السياق، والذي دل عليه قول سليمان عليه السلام بعد ذلك ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ عُلِّمْنَا مَنطِقَ الطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَيْءٍ إِنَّ هَـذَا لَهُوَ الْفَضْلُ الْمُبِينُ* ﴾ فإنه أظهر ما علمه من منطق الطير ــ الذي هو نوع من أنواع العلم ــ وأجمل بقية النعم.

وفي ذلك إشارة إلى أدب العالم، وواجبه تجاه العلم. وأنه يجب عليه أن يحمد الله تعالى ويشكره، وألا تزيده تلك النعمة إلا تواضعاً. وأن يعتقد أنه إن فضل على كثير، فقد فضل عليه كثير. قال تعالى ﴿ وَمَا أُوتِيتُم مِّن الْعِلْمِ إِلاَّ قَلِيلاً ﴾ الإسراء (٨٥). ﴿ وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ ﴾ يوسف (٧٦).

وفي الآية إيحاء بأن العلم كله هبة من الله. وبأن اللائق بكل ذي علم أن يعرف مصدره، وأن يتوجه إلى الله تعالى بالحمد عليه. وأن ينفقه فيما يرضي الله، الذي أنعم به وأعطاه. فلا يكون العلم مبعداً لصاحبه عن الله، ولا منسياً له إياه، وهو بعض منته وعطاياه.

---

(١) راجع ((تفسير الزمخشري)) ٣٥٣/٣ ((تفسير الرازي)) ٢٣/ ١٩٤ ((تفسير القرطبي)) ٥٠٤٥/٧ ((تفسير أبي السعود)) ٢٤٨/٥ ((تفسير الألوسي)) ٢٥٤/١٩.

يقول الخطيب الشربيني "وفي ذلك تحريض للعالم أن يحمد الله تعالى على ما آتاه من فضله، ويعتقد أنه ــ إن فضل على كثير ــ فقد فضل عليه كثير. فلا يتكبر، ولا يفتخر، ويشكر الله تعالى، وينفع به المسلمين، كما نفعه الله تعالى به".

ويقول الإمام النسفي"وفيها أنه يلزمهم لهذه النعمة الفاضلة أن يحمدوا الله على ما أوتوه. وأن يعتقد العالم أنه إن فضل على كثير، فقد فضل عليه مثلهم. وما أحسن قول عمر: كل الناس أفقه من عمر ﷺ"(١).

وفي الآية دليل على جواز التفاضل بين الأنبياء عليهم السلام. لأن قول داود وسليمان ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي فَضَّلَنَا عَلَى كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ*﴾ دليل على أنهما فضلا على كثير، وأن غيرهما فضل عليهما. قال تعالى﴿ تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ مِّنْهُم مَّن كَلَّمَ اللَّهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَاتٍ﴾ البقرة (٢٥٣).

وإذا كان الله تعالى فضل داود وسليمان عليهما السلام على كثير من عباده المؤمنين، فإن مقام محمد ﷺ عند ربه أرفع، ومكانته أعز. لأن الله تعالى فضله على كل العالمين.

فهو أول من يدخل الجنة. وهو صاحب لواء الحمد يوم القيامة. وهو صاحب الشفاعة. وهو خاتم النبيين، وإمامهم. وكان النبي يبعث إلى قومه خاصة، وبعث ﷺ إلى الناس عامة. إلى غير ذلك، مما أعطاه الله تعالى من نعمه التي لا تحصى، وآلائه التي لا تنسى. قال تعالى ﴿ وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَى*﴾ الضحى(٥) وقال ﷺ (أَنَا سَيِّدُ وَلَدِ آدَمَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَا فَخْرَ)(٢).

---

(١) ((تفسير النسفي)) ٢٠٤/٣((السراج المنير)) للخطيب الشربيني ٩٠/٣.

(٢) أخرجه الإمام مسلم عن أبي هريرة ﷺ كتاب الفضائل. باب تفضيل نبينا محمد ﷺ ١٣٥/٧ والترمذي عن أبي سعيد ﷺ كتاب التفسير. ١٥٣/٥. حديث (٣١٤٨)

وبعد أن افتتحت القصة بالإشارة إلى نعمة الله تعالى على داود وسليمان معاً، طوت خبر داود وذكرت جانباً من أحوال سليمان لأنه المقصود بالذكر. فقال تعالى: ﴿وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاوُودَ﴾.

والأصل في الميراث أن ينتقل المال من الميت إلى الحي. وليس ذلك مراداً هنا. لأن أموال الأنبياء لا تورث، كما قال ﷺ (لَا نُورَثُ مَا تَرَكْنَا صَدَقَةٌ)(١).

ولو صح ذلك لما خص به سليمان عليه السلام دون سائر إخوته.

وإنما الميراث هنا ميراث العلم والنبوة. أي ورثه في العلم ــ الذي أشارت إليه الآية السابقة ــ كما ورثه في النبوة والملك. والعلم والنبوة منحة من الله تعالى لمن اصطفى من عباده وأوليائه.

فالإرث هنا مستعمل في معناه المجازي. وهو تشبيه الأحوال الجليلة بالمال، وتشبيه الخلافة بانتقال ملك الأموال. وهذا نحو قوله ﷺ (وَإِنَّ الْعُلَمَاءَ وَرَثَةُ الْأَنْبِيَاءِ)(٢).

فالكلام هنا وارد على سبيل التجوز. لأن العلم والنبوة كلاهما لا يورثان. لكن لما أوتي سليمان عليه السلام النبوة والعلم مثل أبيه، وقام مقامه، فكأنه ورثه. قال تعالى ﴿وَوَهَبْنَا لِدَاوُودَ سُلَيْمَانَ نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ*﴾ ص (٣٠).

=واللفظ للترمذي.

(١) أخرجه الإمام البخاري عن أبي بكر الصديق رضي الله عنه كتاب الفرائض. باب قول النبي ﷺ (لا نورث ما تركنا صدقة) ٤/٢٣٦ برقم ٦٧٢٦ والإمام مسلم عن مالك بن أوس رضي الله عنه كتاب الجهاد. باب حكم الفيء. ٥/ ١٥١.

(٢) أخرجه أبو داود عن أبي الدرداء رضي الله عنه كتاب العلم. باب الحث على طلب العلم ٣/١٥٨٦. والترمذي كتاب العلم. باب ما جاء في فضل الفقه على العبادة ٤/٤٧٣).

وإذا كان سليمان عليه السلام قد آل إليه ميراث داود من العلم والنبوة. فإن ميراث الأنبياء جمعياً قد آل إلى محمد ﷺ قال تعالى ﴿ وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقاً لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِناً عَلَيْهِ فَاحْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنزَلَ اللّهُ وَلاَ تَتَّبِعْ أَهْوَاءهُمْ عَمَّا جَاءكَ مِنَ الْحَقِّ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجاً﴾ المائدة (٤٨).

****

وقد أدرك سليمان عليه السلام فضل الله عليه، فقال اعترافاً بالنعمة، وبياناً لمكانتها:

﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ عُلِّمْنَا مَنطِقَ الطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَيْءٍ ﴾

وهذا تقرير لقوله ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي فَضَّلَنَا عَلَى كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ*﴾.

وهو وارد على سبيل الحمد والشكر، لا على سبيل التعالي والكبر. فهو على نحو قوله ﷺ (أَنَا سَيِّدُ وَلَدِ آدَمَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَا فَخْرَ).

والمنطق: كل لفظ يعبر به عما في الضمير، مفرداً كان أو مركباً. وقد يطلق على كل ما يصوت به على التشبيه أو التبع، كقولهم: نطقت الحمامة. ومنه: الناطق، والصامت للحيوان[1].

وقد كان سليمان عليه السلام يفهم من الطيور كما يفهم بعضهم من بعض. "وقد علم ذلك من طريق الوحي. بأن أطلعه الله على ما في تقاطيع صفير الطيور أو نعيقها، من دلالة على ما في إدراكها وإرادتها. وفائدة هذا العلم: أن الله جعله سبيلاً له، يهتدي به إلى تعرف أحوال عالمية، يسبق الطير إلى إدراكها، بما أودع فيه من القوى الكثيرة"[2].

---

(١) ((تفسير البيضاوي)) (٥٠٧).

(٢) ((التحرير والتنوير)) ٢٣٦/١٩.

إن معرفة لغات الطيور، وتخاطبها جانب من علم الله الذي علمه سليمان عليه السلام واختصه به. وهو شيء لم يعطه الله تعالى غيره من البشر. ولهذا عقب عليه السلام بقوله: ﴿ إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْفَضْلُ الْمُبِينُ* ﴾.

فضل الله الكاشف عن مصدره، الدال على صاحبه. فهل يملك تعليم منطق الطير لبشر إلا الله؟ وهل يؤتي أحد من كل شيء بهذا التعميم إلا الله؟ فلا يكون الشكر إذن إلا لله.

إن للطيور والحيوانات والحشرات وسائل للتفاهم ــ هي لغتها ومنطقها ــ فيما بينها. وذلك أمر ملحوظ في هذه العوالم. ويجتهد علماء هذه الأنواع في إدراك شيء من لغتها، ووسائل التفاهم فيما بينها عن طريق الحدس والظن، لا عن الجزم واليقين. فأما ما وهبه الله تعالى سليمان عليه السلام فكان شأنا خاصاً عن طريق المعجزة الخارقة التي تخالف مألوف البشر، لا عن طريق المحاولة منه والاجتهاد. ولا عن طريق الحدس والظن، كما هو شأن علماء اليوم.

والاقتصار هنا على منطق الطير إيجاز. لأنه عليه السلام إذا علم منطق الطير ــ وهي أبعد الحيوان عن الركون إلى الإنسان، وأسرعها نفوراً منه ــ علم أن منطق ما هو أكثر اختلاطاً بالإنسان حاصل له بالأحرى. فدلت هذه الآية على أن سلمان عليه السلام علم منطق كل صنف من أصناف الحيوان.

وليست هذه هي الخارقة الوحيدة التي أيد الله تعالى بها سليمان عليه السلام بل إن هناك خوارق أخر، فصلها الله تعالى ــ كما سبق ذكره ــ في سور أخر من سور القرآن المجيد. ومن ذلك جريان الرياح والسحاب المسخر بأمره، وامتثال الجن لحكمه. ولهذا قال عليه السلام ﴿ وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَيْءٍ ﴾ أي مما يحاج إليه الملوك في ملكهم. فهو من أسلوب العموم الذي أريد به الخصوص.

جند سليمان

وبعد أن تحدثت الآيات عن نعمة الله على داود وسليمان عليهما السلام، ذكرت الشق الآخر من الخوارق التي مد الله بها سليمان عليه السلام وهو الجيش القوي المنظم، المؤلف من الجن والإنس والطير، فقال تعالى:

﴿ وَحُشِرَ لِسُلَيْمَانَ جُنُودُهُ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ وَالطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ* ﴾

الحشر: الجمع والإحضار من الأماكن المختلفة.

والوزع: الكَفّ والمنع. والوازع: الذي يتقدم الصف، فيصلحه. والوازع في الحرب: الموكل بالصفوف يزع المتقدم منها[1].

وفي هذا المشهد يصور الله تعالى جيش سليمان عليه السلام وهو يسير – على كثرته – بنظام عجيب. فلا يتقدم أحد من مكانه ولا يتأخر. وكأنه وكل بهم وازع، يزع من تقدم منهم.

إنه تصوير للجيش القوي الكبير، الذي تأليف من أجناس مختلفة، وهم على كثرتهم (يُوزَعُونَ) فيحبس أولهم على آخرهم، ليتلاحقوا. ويدفعون حفظاً لنظامهم، وإبقاء على تنسيق صفوفهم. فلا يتقدم المتأخر، ولا يتأخر المتقدم. ليكون ذلك أجدر بالهيبة، وأعون على النصرة، وأقرب للسلامة.

وقد جاء عن ابن عباس وقتادة ومجاهد رضي الله عنهم " كان على كل صنف من جنوده وزعه يزدون أولها على آخرها، لئلا يتقدموا في المسير. كما يفعل الملوك"[2].

---

(١) ((الصحاح في اللغة)) ١٢٩٧/٣.

(٢) ((تفسير ابن كثير)) ٣٥٨/٣، ((السراج المنير)) ٩٢/٣، ((الدر المنثور في التفسير بالمأثور)) للحافظ السيوطي ١٩٥/٥.

لقد تكون جيش سليمان عليه السلام من الإنس والجن والطير. والإنس معرفون، وكذلك الطير. وأما الجن فهم خلق لا نعرف عنهم إلا ما قصه القرآن الكريم، فهم مخلوقون من ﴿مَّارِجٍ مِّن نَّارٍ﴾ الرحمن (١٥) ولهم قدرة عجيبة في التستر عن الناس، والإيعاز والوسوسة للبشر. ولهذا قال تعالى ﴿ إِنَّهُ يَرَاكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لاَ تَرَوْنَهُمْ ﴾ الأعراف (٢٧).

وقد اختلف الناس في وجود الجن ــ وليس هذا مجال حديثنا ــ ويكفينا دليلاً على وجودهم، وما أيدهم الله تعالى به من القدرة الخارقة ما قصه الله علينا من نبئهم مع سليمان عليه السلام في هذه القصة وغيرها.

وقد سخر الله تعالى طائفة منهم لسليمان عليه السلام يبنون له المحاريب والتماثيل والجفان الكبيرة للطعام. كما قال تعالى ﴿ يَعْمَلُونَ لَهُ مَا يَشَاءُ مِن مَّحَارِيبَ وَتَمَاثِيلَ وَجِفَانٍ كَالْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَّاسِيَاتٍ ﴾ سبأ (١٣).

وطائفة أخرى يغوصون له في البحار. كما قال تعالى ﴿ وَالشَّيَاطِينَ كُلَّ بَنَّاء وَغَوَّاصٍ*﴾ ص (٣٧) ﴿ وَمِنَ الشَّيَاطِينِ مَن يَغُوصُونَ لَهُ وَيَعْمَلُونَ عَمَلاً دُونَ ذَلِكَ وَكُنَّا لَهُمْ حَافِظِينَ* ﴾ الأنبياء (٨٢).

وهنا تظهر طائفة ثالثة يسرون في موكبه مع إخوانهم من الإنس والطير. وقد كان ذلك استجابة لقوله عليه السلام ﴿ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكاً لَّا يَنبَغِي لِأَحَدٍ مِّنْ بَعْدِي إِنَّكَ أَنتَ الْوَهَّابُ*﴾ (ص) (٣٥).

وقد وهب الله هذه القوة محمداً ﷺ فصرف إليه نفراً من الجن، يستمعون القرآن، فآمنون به ﷺ قال تعالى ﴿ وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَراً مِّنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوا أَنصِتُوا فَلَمَّا قُضِيَ وَلَّوْا إِلَى قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ* قَالُوا يَا قَوْمَنَا إِنَّا سَمِعْنَا كِتَاباً أُنزِلَ مِن بَعْدِ مُوسَى مُصَدِّقاً لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ

وَإِلَى طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ* يَا قَوْمَنَا أَجِيبُوا دَاعِيَ اللَّهِ وَآمِنُوا بِهِ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ* وَمَن لَّا يُجِبْ دَاعِيَ اللَّهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِي الْأَرْضِ وَلَيْسَ لَهُ مِن دُونِهِ أَولِيَاء أُوْلَئِكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ*﴾ الأحقاف (٢٩ ــ ٣٢).

وإنما أمسك رسول الله ﷺ أن يتصرف في هذه القوة ــ مع المكنة على ذلك ــ كرامة لأخيه سليمان عليه السلام. ولهذا جاء في الحديث الصحيح عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه عَنْ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ (إِنَّ عِفْرِيتًا مِنْ الْجِنِّ تَفَلَّتَ عَلَيَّ الْبَارِحَةَ أَوْ كَلِمَةً نَحْوَهَا لِيَقْطَعَ عَلَيَّ الصَّلَاةَ فَأَمْكَنَنِي اللَّهُ مِنْهُ فَأَرَدْتُ أَنْ أَرْبِطَهُ إِلَى سَارِيَةٍ مِنْ سَوَارِي الْمَسْجِدِ حَتَّى تُصْبِحُوا وَتَنْظُرُوا إِلَيْهِ كُلُّكُمْ فَذَكَرْتُ قَوْلَ أَخِي سُلَيْمَانَ ﴿ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكاً لَّا يَنبَغِي لِأَحَدٍ مِّنْ بَعْدِي إِنَّكَ أَنتَ الْوَهَّابُ*﴾ (١).

فنال ﷺ بذلك فضلاً مثل فضل سليمان عليه السلام وزاد عليه. ورجح بإعراضه عن التصرف في الجن، تبريراً لدعوة أخيه في النبوة. لأن جانب النبوة في رسول الله ﷺ أقوى من جانب الملك. وقد ورد أنه ﷺ خير أن يكون نبياً عبداً، أو يكون نبياً ملكاً، فاختار أن يكون نبياً عبداً (٢).

فرتبة رسول ﷺ أعلى من رتبة سليمان عليه السلام لأن رتبة النبي ﷺ هي رتبة التشريع. وأما رتبة سليمان عليه السلام فهي رتبة الملك ــ لأن سليمان عليه السلام لم يكن مشرعاً، فوهبه الله ملكاً يتصرف فيه بالسياسة ــ ورتبة التشريع أعظم من رتبة الملك(٣).

---

(١) أخرجه الإمام البخاري. كتاب التفسير. باب ﴿ هَبْ لِي مُلْكاً لَّا يَنبَغِي لِأَحَدٍ مِّنْ بَعْدِي إِنَّكَ أَنتَ الْوَهَّابُ﴾ ٥٤٦/٨ رقم (٤٨٠٨).

(٢) أخرجه عبد الرزاق في ((المصنف)) ١٨٤/٣.

(٣) ((التحرير والتنوير)) باختصار ٢٣٩/١٩.

"وتقديم (الجن) على (الإنس) في البيان للمسارعة إلى الإيذان بكمال ملكه، وعزة سلطانه، من أول الأمر. لما أن الجن طائفة عاتية، وقبيلة طاغية ماردة، بعيدة من الحشر والتسخير. فبدأ بهم لعسر جمعهم، ثم ثنى بالإنس لشرفهم" (١).

و(من) في قوله ﴿مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ وَالطَّيْرِ﴾ بيانية. ويجوز أن تكون للتبعيض. لأن الله تعالى سخر لسليمان عليه السلام من كل نوع طائفة، ولم يسخر له كل هذه الأنواع. إذ لو كان الجميع مسخرون له، محشورون في موكبه ما استطاع أن يتبين غيبة هدهد واحد من ملايين الهداهد، فضلاً عن بلايين الطير.

يقول العلامة الألوسي "والظاهر أن الحاشر لكل نوع من الأنواع الثلاثة أشخاص منهم. فيكون من كل نوع أشخاص مأمورون بذلك معدون له"(٢).

غير أنهم كانوا موهوبين. اختصهم الله تعالى بإدراكات خاصة ليست من نوع إدراك بني جنسهم، بل هي أعلى من نظائرها في أمتها. فكانوا بذلك صفوة كل أمة.

وهم لكمالهم صاروا كأنهم كل الإنس، وكل الجن، وكل الطير. يبدو لنا ذلك من قصة الهدهد؛ الذي أدرك من أحوال ملكة سبأ، وقومها ما لا يدركه أعقل الناس وأذكاهم. وموقف الجني؛ الذي عرض على سليمان عليه السلام أن يأتيه بالعرش قبل أن يقوم من مقامه. ثم ها هو ذا الذي عنده علم من الكتاب يأتيه بالعرش في طرفة عين، أو أقل منها.

وقد أطال المفسرون في ذكر مقدار جند سليمان عليه السلام وبالغ كثير منهم مبالغة

---

(١) ((تفسير أبي السعود)) ٤/٢٥٠.

(٢) ((تفسير الألوسي)) ١٩/٢٥٩.

يستبعدها العقل، ولا تصح من جهة النقل. وإنما يكفينا هنا تصوير القرآن للجيش؛ بأنه جيش قوي، مؤلف من الجن والإنس والطير. فأي قوة تقهر هذا الجيش؟ وأي حاجة إلى المبالغة في وصف هذه القوة؟.

****

وإذا كان الله تعالى نصر سليمان عليه السلام عليه بهذه الجنود؛ من الجن والإنس والطير، فقد نصر محمداً ﷺ بالملائكة والريح والسكينة، وأيده بجنود لم تر.

فقال تعالى في رحلة الهجرة ﴿ إِلاَّ تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُواْ ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لاَ تَحْزَنْ إِنَّ اللّهَ مَعَنَا فَأَنزَلَ اللّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُواْ السُّفْلَى وَكَلِمَةُ اللّهِ هِيَ الْعُلْيَا وَاللّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ* ﴾ التوبة(٤٠).

وقال في غزوة الخندق ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَاءتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحاً وَجُنُوداً لَّمْ تَرَوْهَا وَكَانَ اللّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيراً* ﴾ الأحزاب(٩). وقال في غزوة حنين ﴿ ثُمَّ أَنزَلَ اللّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَنزَلَ جُنُوداً لَّمْ تَرَوْهَا وَعذَّبَ الَّذِينَ كَفَرُواْ وَذَلِكَ جَزَاء الْكَافِرِينَ﴾ التوبة(٢٦).

ولهذا قال ﷺ (نُصِرْتُ بِالرُّعْبِ مَسِيرَةَ شَهْرٍ) [١].

وقال (نُصِرْتُ بِالصَّبَا وَأُهْلِكَتْ عَادٌ بِالدَّبُورِ)[٢].

---

(١) أخرجه الإمام البخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه كتاب الجهاد. باب (قول النبي نصرت بالرعب مسيرة شهر) ١٢٨/٦.

(٢) أخرجه الإمام البخاري عن ابن عباس رضي الله عنهما كتاب المغازي. باب غزوة الخندق ٣٩٩/٧.

وإذا كان الله تعالى طوع الإنس والجن والطير، فانقادوا لسليمان عليه السلام فليس ذلك بأعجب من انقياد الشجر لرسول الله ﷺ.

فقد أخرج الإمام مسلم في صحيحه عن جابر رضي الله عنه قال" سِرْنَا مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ حَتَّى نَزَلْنَا وَادِيًا أَفْيَحَ فَذَهَبَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَقْضِي حَاجَتَهُ فَاتَّبَعْتُهُ بِإِدَاوَةٍ مِنْ مَاءٍ فَنَظَرَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَلَمْ يَرَ شَيْئًا يَسْتَتِرُ بِهِ.

فَإِذَا شَجَرَتَانِ بِشَاطِئِ الْوَادِي فَانْطَلَقَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِلَى إِحْدَاهُمَا فَأَخَذَ بِغُصْنٍ مِنْ أَغْصَانِهَا فَقَالَ انْقَادِي عَلَيَّ بِإِذْنِ اللَّهِ فَانْقَادَتْ مَعَهُ كَالْبَعِيرِ الْمَخْشُوشِ الَّذِي يُصَانِعُ قَائِدَهُ حَتَّى أَتَى الشَّجَرَةَ الْأُخْرَى فَأَخَذَ بِغُصْنٍ مِنْ أَغْصَانِهَا فَقَالَ انْقَادِي عَلَيَّ بِإِذْنِ اللَّهِ فَانْقَادَتْ مَعَهُ كَذَلِكَ حَتَّى إِذَا كَانَ بِالْمَنْصَفِ مِمَّا بَيْنَهُمَا لَأَمَ بَيْنَهُمَا يَعْنِي جَمَعَهُمَا فَقَالَ الْتَئِمَا عَلَيَّ بِإِذْنِ اللَّهِ فَالْتَأَمَتَا (١).

****

في واد النمل

وبعد أن صورت الآيات جيش سليمان عليه السلام في قوته، وتكامله، وانتظامه. ذكرت مشهداً من مشاهد الإعجاز الإلهي الذي أيده الله به. فقال تعالى:

﴿ حَتَّى إِذَا أَتَوْا عَلَى وَادِي النَّمْلِ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَا أَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ* فَتَبَسَّمَ ضَاحِكاً مِّن قَوْلِهَا وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَى وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحاً تَرْضَاهُ وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ* ﴾

والآية هنا تذكر خارقتين:

---

(١) أخرجه الإمام مسلم كتاب الزهد. من حديث جابر الطويل ٨/٣٢٦.

الأولى: إدراك سليمان عليه السلام للنملة، وهي تحذر قومها، وتنادي على بني جنسها؛ تنذرهم، وتأمرهم أن يدخلوا مساكنهم، خوفاً عليهم من سليمان وجيشه.

والثانية: إدراك النملة أن هذا سليمان عليه السلام وأن هؤلاء هم جنوده، وأنهم من العدل بحيث إنهم لا يتعمدون أذية أحد من الخلق إلا حالة كونهم لا يشعرون.

أدرك سليمان عليه السلام كلام النملة وفهمه، فانشرح صدره لذلك وتبسم.

انشرح صدره وسر، ولا يسر نبي بأمر دنيا، إنما يسر بأمر الآخرة.

انشرح صدر سليمان عليه السلام وسر لأن يكون للنمل هذا الإدراك، وأن يكون هذا انطباعه عنه. لأن قول النملة ﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ دليل على ظهور رحمته، ورحمة جنوده، وظهور حاله وحالهم في باب التقوى.

كما انشرح صدر سليمان عليه السلام وسر بما آتاه الله مما لم يؤت أحداً؛ من سماعه لكلام النمل، وإحاطته بمعناه.

لم يتكبر سليمان عليه السلام بما رأى، ولم يتعال، وإنما شكر ربه على هذه النعمة، التي تصله بهذه العوالم المحجوبة المعزولة عن الناس. ودعا الله تعالى أن يوفقه للشكر، وأن يديم عليه نعمة العمل الصالح، وأن يدخله برحمته في عباده الصالحين. فقال ﴿ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَى وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحاً تَرْضَاهُ وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ* ﴾.

وفي الآية دليل على عصمة الأنبياء.

يقول الإمام الرازي "إن النملة قالت (وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ) كأنها عرفت أن النبي معصوم، فلا يقع منه قتل هذه الحيوانات إلا على سبيل السهو. وهذا تنبيه عظيم

على وجوب الجزم بعصمة الأنبياء عليهم الصلاة والسلام" [1].

ومن اللطائف ما قيل هنا: إن النملة لما عرفت لسليمان عليه السلام فضله وأقرت به. عَظُمَ أمرها، ونُهي عن قتلها. ففي الحديث عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما إِنَّ النَّبِيَّ ﷺ نَهَى عَنْ قَتْلِ أَرْبَعٍ مِنْ الدَّوَابِّ؛ النَّمْلَةُ وَالنَّحْلَةُ وَالْهُدْهُدُ وَالصُّرَدُ [2]. وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه قَالَ نَهَى رَسُولُ اللَّهِ ﷺ عَنْ قَتْلِ الصُّرَدِ وَالضِّفْدَعِ وَالنَّمْلَةِ وَالْهُدْهُدِ[3].

فالنملة أثنت على سليمان عليه السلام وأخبرت بأحسن ما تقدر عليه، ونفت عنه الجور. وأما الهدهد فإنه كان دليله.

وأما الصرد[4] فقد روي عن أبي هريرة رضي الله عنه أنه أول من صام. وكان دليل إبراهيم عليه السلام حينما خرج من الشام إلى الحرم لبناء البيت الحرام. وأما الضفدع فإنها كانت تصب الماء على نار إبراهيم[5].

****

سليمان والهدهد

وبعد أن ذكرت الآيات مشهد استماع سليمان عليه السلام للنملة، وهي تحدث صواحبها، ذكرت مشهداً آخر من المشاهد الخارقة التي مد الله تعالى سليمان

---

(١) ((تفسير الرازي)) ١٩٧/٢٣.

(٢) سنن أبي داود كتاب الأدب. باب في قتل الذر ٢٢٣٦/٤ حديث (٥٢٦٧).

(٣) سنن ابن ماجه كتاب الصيد. باب ما ينه عن قتله ٢/ ١٠٧٤ حديث ٣٢٢٤.

(٤) الصرد: طائر أكبر من العصفور، ضخم الرأس والمنقار. يصيد الحشرات. ((المعجم الوجيز)) (٣٦٣).

(٥) راجع ((تفسير القرطبي)) ٢٨٠٠/٣، ٥٠٥٤/٧.

عليه السلام وأيده بها. وهو مشهد من مشاهد حكمه وحزمه، واهتمامه بصغار الأمور، فضلاً عن كبيرها. فقال تعالى:

﴿ وَتَفَقَّدَ الطَّيْرَ فَقَالَ مَا لِيَ لَا أَرَى الْهُدْهُدَ أَمْ كَانَ مِنَ الْغَائِبِينَ* لَأُعَذِّبَنَّهُ عَذَاباً شَدِيداً أَوْ لَأَذْبَحَنَّهُ أَوْ لَيَأْتِيَنِّي بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ* فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ فَقَالَ أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِ وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍ بِنَبَإٍ يَقِينٍ* إِنِّي وَجَدتُّ امْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ* وَجَدتُّهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِن دُونِ اللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ* أَلَّا يَسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي يُخْرِجُ الْخَبْءَ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ* اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ* ﴾

ولعل هذا الهدهد كان من نوع خاص بشخصه وذاته، وليس هدهداً من تلك الألوف المؤلفة من بني جنسه.

فقد روي عن ابن عباس وابن جبير ومجاهد رضي الله عنهم "أن هذا الهدهد كان مهندساً، يدل سليمان عليه السلام على الماء، إذا كان بأرض فلاة طلبه، فنظر له الماء، كما يرى الإنسان الشيء الظاهر على وجه الأرض، ويعرف كم مساحة بعده من وجه الأرض، فإذا دلهم عليه أمر سليمان عليه السلام الجان، فحفروا ذلك المكان، حتى يستنبط الماء من قراره، فنزل سليمان عليه السلام يوماً بفلاة من الأرض، فتفقد الطير، فلم يره".

وعن ابن إسحاق "أن سليمان عليه السلام كان إذا غدا إلى مجلسه الذي كان يجلس فيه تفقد الطير، وكان ــ فيما يزعمون ــ يأتيه نواب من كل صنف الطير، كل يوم طائر، فنظر فرأى من أصناف الطير كلها من حضره إلا الهدهد".

وروي: إنه كان يظل سليمان عليه السلام من الشمس، فلما فقد ذلك تفقده[1].

وأياً ما كان الأمر، فقد تيقن سليمان من غيبة الهدهد بدون إذن، فعزم على أن يأخذ الأمر بالحزم، حتى لا تكون فوضى، فتوعده بأحد أمرين؛ إما العذاب الشديد، وإما الذبح، إن لم يأته بحجة بينة، تكون بمثابة استغفار عن هذا الذنب الكبير.

وهنا تبرز سمة من سمات النبوة في شخص سليمان عليه السلام إنها سمة الرحمة والعدل التي اتصف بها هو أخوانه من الأنبياء والمرسلين. كما برزت سمة الحزم واليقظة والدقة. إذ لم يغفل عن غيبة جندي واحد من هذا الحشر العظيم.

****

وإذا كان الله تعالى قد أيد سليمان عليه السلام بالمعجزات الخارقة التي مكنته من استماع النملة، والحديث إلى الهدهد، فليس ذلك بأعجب من تسليم الشجر والحجر على نبينا ﷺ والشهادة له.

فقد أخرج الإمام مسلم في صحيحه عن جابر بن سمرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ (إِنِّي لَأَعْرِفُ حَجَرًا بِمَكَّةَ كَانَ يُسَلِّمُ عَلَيَّ قَبْلَ أَنْ أُبْعَثَ إِنِّي لَأَعْرِفُهُ الْآنَ)[2].

وعَنْ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ رضي الله عنه قَالَ كُنْتُ مَعَ النَّبِيِّ ﷺ بِمَكَّةَ فَخَرَجْنَا فِي بَعْضِ

---

(١) ((تفسير الرازي))١٩٩/٢٣ ((تفسير ابن كثير))٣٥٩/٣، ٣٦٠.

(٢) صحيح مسلم كتاب الفضائل باب فضل نسب النبي ﷺ وتسليم الحجر عليه قبل النبوة ١٣٤/٧.

نَوَاحِيهَا فَمَا اسْتَقْبَلَهُ جَبَلٌ وَلَا شَجَرٌ إِلَّا وَهُوَ يَقُولُ السَّلَامُ عَلَيْكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ (١).

وتسبيح الحصى في كف نبينا ﷺ وحنين الجزع إليه، معروف ومشهور في كتب الحديث والسير.

****

لم يتغيب الهدهد كثيراً. وجاء بمفاجأة كبيرة، جعلته يخاطب الملك بخطاب الواثق من نفسه، القانع بأداء واجبه، فقال له:

﴿أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِ وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍ بِنَبَإٍ يَقِينٍ*إِنِّي وَجَدتُّ امْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ* وَجَدتُّهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِن دُونِ اللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ*﴾

والإحاطة: العلم بالشيء من جميع جهاته. أي اطلعت على ما لم تتطلع عليه أنت، ولا جنودك. فقد جئتك من سبأ بنبأ يقين، وخبر صادق، فأني وجدت امرأة أوتيت كل ما يحتاج إليه الملوك؛ من عظمة ملكها، وثرائها، وتوافر أسباب الحضارة والقوة والمتاع. تحكم أمة من الناس، مكن الله لهم في الأرض. ولكنهم بطروا نعمة الله، وزين لهم الشيطان أعمالهم، فعبدوا الشمس من دون الله!!

ونحن نلحظ من حوار الهدهد مع سليمان عليه السلام أن هذا الهدهد قد تمتع بالذاتية والإيجابية، وحسن المشورة. فبعد أن دفع عن نفسه ما توعده به سليمان عليه السلام من العذاب أو الذبح، وبين أنه أدى ما عليه من واجب، نراه يطالب سليمان نفسه بتأدية واجبه. فيشير عليه باتخاذ موقف عاجل، ويرشده إلى ما ينبغي أن يكون عليه القوم، من الإيمان بالله تعالى. ولن يكون ذلك إلا إذا أدى سليمان عليه السلام ما

---

(١) سنن الترمذي كتاب المناقب. باب في آيات إثبات نبوة النبي ﷺ ٥/٤١٠ حديث (٣٦٢٦).

عليه من واجب الدعوة. نلحظ ذلك من قوله ﴿ أَلَّا يَسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي يُخْرِجُ الْخَبْءَ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ* اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ*﴾.

ولكن كيف للهدهد أن يقول ﴿وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَيْءٍ﴾ مع قول سليمان عليه السلام ﴿وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَيْءٍ﴾ ؟ ألا يكون بذلك قد سوى بين ما أوتي سليمان عليه السلام وما أوتيت بلقيس؟

وجواب ذلك: أن قول سليمان عليه السلام إنما يرجع إلى ما أوتي من النبوة والحكمة، ثم إلى الملك، وأسباب الدنيا. وأما قول الهدهد، فلم يكن إلا إشارة إلى ما يتعلق بالدنيا.

ولقائل أن يقول: كيف جاز للهدهد أن يسوى بين عرش الله تعالى، وعرش بلقيس، في الوصف بالعظيم؟ وكيف استعظم عرشها، مع ما كان يرى من ملك سليمان عليه السلام ؟.

والجواب على الأول: أن بين الوصفين بون عظيم، لأن وصف عرشها بالعظيم تعظيم له بالإضافة إلى عرش أبناء جنسها من الملوك. وأما وصف عرش الله تعالى بالعظيم، فإنه تعظيم له بالنسبة إلى ما خلق من السموات والأرض.

وعلى الثاني: أنه استصغر حالها إلى حال سليمان عليه السلام فاستعظم ذلك العرش. ويجوز إلا يكون لسليمان عليه السلام ــ مع جلالته ــ مثله. كما قد يتفق لبعض الأمراء شيء لا يكون مثله عند السلطان.

فإن قيل: كيف خفي على سليمان عليه السلام تلك المملكة العظيمة، مع أن الإنس

والجن والطير كانوا في طاعته؟ ولم يكن بينه وبين وسبأ حال طيران الهدهد إلا مسيرة ثلاثة أيام؟

أجيب: بأن الله تعالى أخفى عنه ذلك لمصلحة رآها. كما أخفى مكان يوسف عليه السلام على أبيه.

وإن قيل: من أين للهدهد الاهتداء إلى معرفة الله؟ ووجوب السجود له؟ وإنكار سجودهم للشمس؟ وإضافة تزيين الكفر إلى الشيطان؟

أجيب بأنه لا يبعد أن يلهمه الله تعالى ذلك، كما ألهمه وغيره من الطيور وسائر الحيوانات المعارف اللطيفة التي لا يكاد كثير من العقلاء يهتدون إليها، خصوصاً في زمن نبي سخرت له الطيور، وعلم منطقها، وجعل ذلك معجزة له[1].

وقد أخبر الله تعالى في العديد من الآيات أن الكون كله يعرف الله، ويسبح بحمده، ويؤمن به، ويدين له. فقال تعالى ﴿تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَاوَاتُ السَّبْعُ وَالأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلاَّ يُسَبِّحُ بِحَمْدَهِ وَلَـكِن لاَّ تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُ كَانَ حَلِيماً غَفُوراً*﴾ الإسراء(٤٤) ﴿ إِن كُلُّ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتِي الرَّحْمَنِ عَبْداً*﴾ مريم(٩٣).

وفي الآية رد على قال: إن الأنبياء يعلمون الغيب.

وفيها دليل على أنه يجوز للصغير والمتعلم أن يقول للكبير وللعالم: عندي ما ليس عندك. إذا تحقق ذلك وتيقنه. وفيها تنبيه على أن في أدنى خلق الله تعالى من أحاط علماً بما لم يحط به نبي من أعظم الأنبياء. فيكون ذلك داعياً إلى

---

(١) ((تفسير الرازي)) ٢٠٠/٢٣((تفسير القرطبي)) ٥٠٦٦/٧ ((السراج المنير)) ٩٩/٣.

ترك الإعجاب بالعلم، وادعاء الإحاطة بالشئ من جميع جهاته[1].

****

لم يتسرع سليمان عليه السلام في تصديق الهدهد أو تكذيبه. ولم يستخف بالنبأ الذي جاء به، وإنما أخذه مأخذ الجد، للتأكد من صحته ــ شأن النبي العادل، والملك الحازم ــ فقال:

﴿ سَنَنظُرُ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ الْكَاذِبِينَ* اذْهَب بِّكِتَابِي هَذَا فَأَلْقِهْ إِلَيْهِمْ ثُمَّ تَوَلَّ عَنْهُمْ فَانظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ* ﴾

ويبدو أن سليمان عليه السلام قبل عذر الهدهد، وصدقه فيما قال، فدرأ عنه العقوبة. وأراد أن يتأكد من صدق حديثه. لا تهمة له، وإلا لما ندبه لذلك الأمر.

يقول الإمام القرطبي" وفي الآية دليل على أن الإمام يجب عليه أن يقبل عذر رعيته، ويدرأ العقوبة عنهم في ظاهر أحوالهم بباطن أعذارهم. لأن سليمان عليه السلام لم يعاقب الهدهد حين اعتذر إليه. وإنما صار صدق الهدهد عذراً، لأنه أخبر بما يقتضي الجهاد، وكان سليمان عليه السلام يحب الجهاد. وفي الحديث (وَلَيْسَ أَحَدٌ أَحَبَّ إِلَيْهِ الْعُذْرُ مِنْ اللَّهِ مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ أَنْزَلَ الْكِتَابَ وَأَرْسَلَ الرُّسُلَ)" [2].

ولكن للإمام أن يمتحن ذلك إذا تعلق به حكم من أحكام الشريعة، كما فعل سليمان عليه السلام فإنه لما قال له الهدهد ﴿ إِنِّي وَجَدتُّ امْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ ﴾ لم يستفزه الطمع، ولا استجره حب الزيادة في الملك

---

(١) ((تفسير الرازي)) ٢٣/٢٠٠،((تفسير القرطبي)) ٧/٥٠٦٤.((السراج المنير)) ٣/٩٩.

(٢) أخرجه الإمام البخاري عن المغيرة ﷺكتاب التوحيد. باب قول النبي ﷺ (ولا شخص أغير من الله) ١٣/ ٣٩٩ والإمام مسلم. باب غيرة الله وتحريم الفواحش(٤٩٥٨).

إلى أن يعرض له، حتى قال ﴿ وَجَدتُّهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِن دُونِ اللَّهِ﴾ فغاظه حينئذ ما سمع، وطلب الانتهاء إلى ما أخبر، وتحصيل علم ما غاب عنه من ذلك. فقال ﴿ سَنَنظُرُ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ الْكَاذِبِينَ﴾"[1].

****

في مملكة سبأ

سمع سليمان عليه السلام مقالة الهدهد، وأخذها مأخذ الجد، فكتب كتاباً إلى ملكة سبأ وقومها. خاطبهم فيه بلغة الحزم والجزم، ودعاهم إلى الإسلام معه، والإيمان بالله رب العالمين. وأمر الهدهد أن يذهب بهذه الرسالة إليهم، وأن يعرض عنهم قليلاً، ليرى رأيهم، ويعرف جوابهم.

ولا يذكر القرآن تفصيل رحلة الهدهد، ولا المدة التي قطع فيها الطريق، ولا كيفية ألقائه الكتاب إلى الملكة. وإنما تذكر بعض الروايات أنه حمله في جناحه ــ وقيل: بمقاره ــ كما هي عادة الطير. وجاء به إلى قصر بلقيس ــ إلى الخلوة التي كانت تختلي فيها بنفسها ــ فألقاه إليها من كوة هناك ــ كانت فتحتها لتدخل منها الشمس عند طلوعها، لمعنى عبادتها إياها ــ ثم تولى عنها، وهو منها قريب، ليرى ماذا تصنع؟

فلما انتبهت الملكة وجدت الرسالة، فتحيرت مما رأت، وهالها ذلك، فظنت أنه دخل عليها أحد، ثم قامت، فوجدت حالها كما هو، فعمدت إلى الكتاب، ففحت ختمه، وقرأته، فعلمت أنه من سليمان عليه السلام وأنه يدعوهم إلى الاستسلام لله[2].

---

(١) ((تفسير القرطبي)) ٥٠٧١/٧.

(٢) ((تفسير الطبري))٥٦٧/٩ ((تفسير القرطبي))٥٠٧٣/٧ ((تفسير ابن كثير)) ٣٦٠/٣.

ثم جمعت حاشيتها، لتقرأ عليهم الرسالة، وتستشيرهم في هذا الأمر. فقالت:

﴿ يَا أَيُّهَا المَلَأُ إِنِّي أُلْقِيَ إِلَيَّ كِتَابٌ كَرِيمٌ* إِنَّهُ مِن سُلَيْمَانَ وَإِنَّهُ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ* أَلَّا تَعْلُوا عَلَيَّ وَأْتُونِي مُسْلِمِينَ* ﴾

والراجح: أن الملكة لم تعلم من ألقى إليها الكتاب، ولا كيفية إلقائه، وإلا لأعلنت هذه العجيبة التي لا تقع كل يوم، ولكنها قالت بصيغة المجهول ﴿ إِنِّي أُلْقِيَ إِلَيَّ كِتَابٌ كَرِيمٌ ﴾ (١).

وربما كان صف الملكة للكتاب بأنه (كِتَابٌ كَرِيمٌ) خطر لها من خاتمه أو شكله، فكرامة الكتاب ختمه. أو من محتواه، فقد بدأه بـ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ أو لأنه من عند عظيم في نفسها ونفوسهم، فعظمته إجلالاً له. وقيل: بل توهمت أنه من السماء.

ويجوز أن يكون وصفها له بذلك لما تضمن من لين القول، والموعظة في الدعاء إلى الله، وحسن الاستعطاف والاستلطاف، من غير أن يتضمن سباً ولا لعناً، ولا ما يغير النفس، على عادة الرسل في الدعاء إلى الله ﷻ. ولهذا قال تعالى لنبيه ﷺ ﴿ ادْعُ إِلِى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ النحل (١٢٥) وقال لموسى وهارون عليهما السلام ﴿ فَقُولَا لَهُ قَوْلاً لَّيِّناً لَّعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى* ﴾ طه (٤٤). يقول الإمام القرطبي: وكلها وجوه حسان. وهذا أحسنها(٢).

وفحوى الكتاب كان في غاية البساطة، والبلاغة والفصاحة، والقوة، لأنه

---

(١) ((في ظلال القرآن)) ٥/٢٦٣٩.

(٢) ((تفسير القرطبي)) ٧/٥٠٧٤.

حصل المعنى بأيسر عبارة وأحسنها. فهو مبدوء بـ﴿ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ ومطلوب فيه أمر واحد؛ ألا يستكبروا على مرسله، وأن يأتوا إليه مستسلمين، مؤمنين بالله الذي يخاطبهم باسمه.

وقد يقال: لم قدم سليمان عليه السلام اسمه على اسم الله تعالى، حتى قالت الملكة ﴿ إِنَّهُ مِن سُلَيْمَانَ وَإِنَّهُ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ* ﴾ ؟

وجوابه: أن سليمان عليه السلام لم يقدم اسمه ـ حشاه ذلك ـ بل ابتدئ بـ(بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ) فلما قرأت بلقيس الكتاب، أخبرت أنه من سليمان. ثم حكت ما فيه. فالتقديم واقع في الحكاية، لا في الرسالة(١).

****

ألقت الملكة إلى قومها بفحوى الكتاب، ثم استأنفت الحديث تطلب رأيهم، وتعلن أنها لن تقطع في الأمر إلا بعد مشورتهم، على عادتها معهم في مثل هذا الأمر. وربما كان قصدها من ذلك تطييب نفسهم ليمالؤها، وينزلوا على رأيها.

﴿ قَالَتْ يَا أَيُّهَا المَلَأُ أَفْتُونِي فِي أَمْرِي مَا كُنتُ قَاطِعَةً أَمْراً حَتَّى تَشْهَدُونِ* قَالُوا نَحْنُ أُوْلُوا قُوَّةٍ وَأُولُوا بَأْسٍ شَدِيدٍ وَالْأَمْرُ إِلَيْكِ فَانظُرِي مَاذَا تَأْمُرِينَ*

قَالَتْ إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوا أَعِزَّةَ أَهْلِهَا أَذِلَّةً وَكَذَلِكَ يَفْعَلُونَ* وَإِنِّي مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِم بِهَدِيَّةٍ فَنَاظِرَةٌ بِمَ يَرْجِعُ الْمُرْسَلُونَ* ﴾.

"وفي هذا تبدو سمة الملكة الأريبة. فواضح منذ اللحظة الأولى أنها أُخذت بهذا الكتاب الذي أُلقي إليها من حيث لا تعلم، والذي يبدو فيه الحزم والاستعلاء. وقد نقلت هذا الأثر إلى نفوس الملاء من قومها، وهي تصف الكتاب بأنه (كِتَابٌ

---

(١) ((تفسير الرازي)) ٢٣/٢٠٠.

كَرِيمٌ) فواضح أنها لا تريد المقاومة والخصومة، ولكنها لا تقول ذلك صراحة، إنما تمهد له بهذا الوصف، ثم تطلب الرأي بعد المشورة"[1].

وعلى عادة رجال الحاشية، أبدوا استعدادهم للعمل، ولكنهم فوضوا الملكة في الرأي. يقول الحسن البصري ﷺ: فوضوا أمرهم إلى علجة[2] تضطرب ثدياها، فلما قالوا لها ما قالوا كانت هي أحزم رأياً منهم، وأعلم بأمر سليمان[3].

لقد كانت المرأة حكيمة، استشارت القوم في أمرها، فلما سلموا لها، مع ما أظهروا لها من البأس والقوة والشدة ــ وكأنها أحست من كلامهم ميلاً إلى الحربَ ــ مالت إلى المصالحة، ورتبت الجواب، وأخبرت عند ذلك بفعل الملوك بالقرى التي يغلبون عليها، فقالت:

﴿ إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوا أَعِزَّةَ أَهْلِهَا أَذِلَّةً وَكَذَلِكَ يَفْعَلُونَ﴾.

وهنا تظهر شخصية المرأة من وراء شخصية الملكة؛ المرأة التي تكره الحرب والتدمير، والتي تستخدم سلاح الحيلة والملاينة، قبل أن تستخدم سلاح القوة والمقاتلة.

فهي تعلم أن من طبيعة الملوك إذا دخلوا قرية أشاعوا فيها الفساد، وأباحوا دمارها، وانتهكوا حرمتها، واستذلوا أعزة أهلها، من الولاة والجنود. كما أنها تدرك أن أصحاب الدعوات لا يهزمون، وإن تجردوا من القوة وأسبابها. فأرادت

---

(١) ((في ظلال القرآن)) ٥/٢٦٤٠.

(٢) العِلج: الرجل من كفار العجم. والعِلجة مؤنثه ((الصحاح)) ١/٣٣٠.

(٣) ((تفسير ابن كثير)) ٣/٣٦٢.

أن تختبر سليمان عليه السلام بهدية تكشف لها عن معدنه.

وقد سجل القرآن لهذه المرأة ذكاءها، فإنها لم تحاول ــ وهي تختبر حقيقة سليمان عليه السلام ــ أن ترشوه بالمال مباشرة. وإنما حاولت أن تختبر حقيقته بهدية. فإن كان ممن يعملون لجمع المال، وبسط السلطان، فإن الهدية تسكته، لأن الهدية تلين القلوب، وتعلن الود، وقد تفلح في دفع القتال.

وأما إن كان من أرباب العقائد، وأصحاب الدعوات، فإنه سيرد الهدية، ولن يقبل إلا الإيمان بما يؤمن به. فإذا تبينت ذلك كان حقاً عليها ألا تترد في مبايعة هذا المؤمن، والإسلام مع هذا المصلح. فهي تجربة إذاً، فإن قبلها سليمان عليه السلام فهو أمر الدنيا، ووسائل الدنيا إذاً تجدي، وإن لم يقبلها، فهو إذاً أمر العقيدة، الذي لا يصرفه عنه مال، ولا عرض من أعراض هذه الأرض[1].

وعن ابن عباس رضي الله عنهما: أنها قالت لقومها: إن قبل الهدية فهو ملك فقاتلوه، وإن لم يقبلها فهو نبي فاتبعوه. وقال قتادة رضي الله عنه: ما كان أعقلها في إسلامها وشركها، علمت أن الهدية تقع موقعاً من الناس[2].

والقرآن الكريم لم يحدد لنا نوع الهدية التي أرادت الملكة أن ترسلها إلى سليمان عليه السلام. ولهذا فقد اختلف المفسرون في تحديدها. ورويت آثار كثيرة في تعيينها. وأكثر هذه الآثار من الإسرائيليات التي لا تصح نقلاً، ولا يقرها عقل.

فالله أعلم بحقيقتها. ومثل هذه الأمور مما لا يتعلق به حكم شرعي، ولا يتوقف عليه أمر ديني. ومن ثم فإن القرآن لا يركز كثيراً على تعيينها، بقدر

---

(١) ((تذكرة الدعاة)) ((في ظلال القرآن)) ٥/٢٦٤٠.

(٢) ((تفسير ابن كثير)) ٣/٣٦٢.

تركيزه على ما فيها من فوائد وعبر.

وتشير الآيات إلى أن صيت سليمان عليه السلام كان ذائعاً، حتى أن الملكة ــ وهي لم تكن تعبد الله ــ لم تعرفهم به، وهم كذلك لم يسألوا عنه. ولذلك لم تتسرع في إعلان الحرب عليه.

****

موقف سليمان عليه السلام من هدية الملكة

استقر رأي الملكة وقومها على إرسال الهدية إلى سليمان عليه السلام فلما جاءت الرسل بالهدية استنكر سليمان عليه السلام عليهم اتجاههم إلى شرائه بالمال، أو تحويله عن دعوته، مستهزئا بالمال، مستنكراً الاتجاه إليه في غير مجال العقيدة والدعوة.

وأعلن في قوة ووضوح أن ما حاولوا شرائه به إنما هو تافه ورخيص إذا ما قيس بما آتاه الله من العلم والنبوة، وتسخير الجن والطير. ثم يتبع هذا الاستنكار بالتهديد والوعيد أن يأتيهم بجنود لا طاقة لهم بها، وأن يخرجنهم من أرضهم أذلة وهم صاغرون. فيقول تعالى:

﴿ فَلَمَّا جَاء سُلَيْمَانَ قَالَ أَتُمِدُّونَنِ بِمَالٍ فَمَا آتَانِيَ اللَّهُ خَيْرٌ مِّمَّا آتَاكُم بَلْ أَنتُم بِهَدِيَّتِكُمْ تَفْرَحُونَ*

ارْجِعْ إِلَيْهِمْ فَلَنَأْتِيَنَّهُمْ بِجُنُودٍ لَّا قِبَلَ لَهُم بِهَا وَلَنُخْرِجَنَّهُم مِّنْهَا أَذِلَّةً وَهُمْ صَاغِرُونَ*﴾

وقد روي عن ابن عباس رضي الله عنهما: أن سليمان عليه السلام أمر الشياطين، فموهوا له ألف قصر من ذهب وفضة، فلما رأت الرسل ذلك قالوا: ما يصنع هذا

بهديتنا؟[1].

إن المال سلاح فتاك، تنحني له الهامات، وتنكسر أمامه الرايات، وتتساقط من أجله الدعوات. وقد ابتلي النبي ﷺ بمثل ما ابتلي به سليمان عليه السلام عندما عرض عليه المشركون المال والملك السيادة. فأعرض عن ذلك كله، وأبى إلا أن يسير في دعوته، حتى انتشر دينه، وأظهره الله على الدين كله.

ولا يذكر السياق كيف عاد رسل الملكة إليها، ولا الحديث الذي دار بينها وبينهم، و لا ما عزمت عليه بعد ذلك ــ جرياً على عادة القرآن في عدم الإسهاب في مثل هذه الأمور، وإبراز مواطن العظات والعبر ــ إنما يترك فجوة نعلم مما بعدها أنها عرفت أنه ليس بملك من ملوك الدنيا. وأنه لا طاقة لهم بقتاله. وأنها قادمة إليه. وأن سليمان عليه السلام علم ذلك، أو ترجح إليه ذلك على أقل تقدير، فأراد أن يفاجئها بما يحملها على الإيمان بالله تعالى.

****

سليمان والملأ من قومه

ويبدو أن سليمان عليه السلام أدرك من إرسال الملكة الهدايا أنها لا تريد العداء. وترجح لديه أنها ستستجيب لدعوته. فجلس مع الملأ من قومه يتذاكر استحضار عرشها من بلادها. وأراد أن يكون ذلك وسيلة لاستعراض القوة الخارقة التي تؤيده، لتؤثر في قلبها، وتقودها إلى الإيمان بالله، وتحملها إلى الإذعان لدعوته.

﴿ قَالَ يَا أَيُّهَا المَلَأُ أَيُّكُمْ يَأْتِينِي بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَن يَأْتُونِي مُسْلِمِينَ*
قَالَ عِفْرِيتٌ مِّنَ الْجِنِّ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ وَإِنِّي عَلَيْهِ لَقَوِيٌّ

---

(١) ((تفسير القرطبي)) ٧/ ٥٠٧٩ ((تفسير ابن كثير)) ٣/٣٦٣.

أَمِينٌ * قَالَ الَّذِي عِندَهُ عِلْمٌ مِّنَ الْكِتَابِ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ فَلَمَّا رَآهُ مُسْتَقِرّاً عِندَهُ قَالَ هَذَا مِن فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ * ﴾

وقد اختلف المفسرون في السبب الذي دفع سليمان عليه السلام إلى استحضار العرش قبل أن يأتوه مسلمين.

فعن قتادة وعطاء والسدي وزهير بن محمد رحمهم الله: لما بلغ سليمان عليه السلام أنها آتية إليه. وكان قد ذُكر له عرشها، فأعجبه. وكان من ذهب، وقوائمه لؤلؤ وجوهر، وكان مستتراً بالديباج والحرير، وكانت عليه تسعة مغاليق، فكره أن يأخذه بعد إسلامهم. وقد علم نبي الله أنه متى أسلموا تحرم أموالهم ودماؤهم، فقال ﴿ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَيُّكُمْ يَأْتِينِي بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَن يَأْتُونِي مُسْلِمِينَ ﴾ فتحرم عليه أموالهم بإسلامهم.

وهذا القول ضعفه أكثر أهل التفسير. حتى قال العلامة النسفي "وهو بعيد عند أهل التحقيق".

وقيل: إنما أراد بذلك أن يريها القدرة التي هي من عند الله تعالى، ويجعلها دليلاً على نبوته.

وقيل: إنما فعل ذلك لاختبار عقلها.

وقيل: بل فعل ذلك ليعرف مقدار مملكتها قبل وصولها إليه.

وقيل: إنه أراد بذلك التأكد من صدق الهدهد في وصف العرش[1].

---

(١) ((تفسير النسفي)) ٣/٢١٣((تفسير ابن كثير)) ٣/٣٦٣((تفسير القرطبي))٧/٥٠٨٥.

وأيا ما كان الأمر. فإن سليمان عليه السلام لما استشعر مجيء الملكة عقد مجلساً جمع فيه أشراف قومه، وطلب منهم أن يحضروا له عرشها قبل أن يأتوه مسلمين. فقال عفريت من الجن ﴿ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ وَإِنِّي عَلَيْهِ لَقَوِيٌّ أَمِينٌ* ﴾. ويبدو أنه استطول هذه الفترة واستبطأها، فقال الذي عنده علم من الكتاب ﴿ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ ﴾ وقد أنجز ما وعد به. فقيل: إنه توضأ، ودعا الله تعالى، وطلب من سليمان عليه السلام أن ينظر ناحية اليمن – التي فيها العرش المطلوب – فمثل بين يديه.

وهكذا ينتفع الملك العادل بالعلم النافع. ويسخر العالم الصالح علمه لخدمة الملك العادل. حقاً إنها صفات المجتمع الفاضل.

والقرآن لم يذكر لنا اسم الذي عنده علم من الكتاب، ولم يحدد ولا جنسه، ولا الكتاب الذي كان عنده، إنما نفهم أنه رجل مؤمن على اتصال بالله تعالى، موهوب سراً من أسراره، يستمد به من القوة الكبرى التي لا تقف لها الحواجز والأبعاد. ولم يكشف سره، ولا تعليله، لأنه خارج عن مألوف البشر في حياتهم العادية. هذا أقصى ما يقال في الدائرة المأمونة، التي لا تخرج إلى عالم الأساطير والخرافات.

وقد اختلف المفسرون في تحديد اسمه، وتعيين جنسه.

فقيل: إنه سليمان نفسه. وهذا القول رجحه الإمام الرازي. وهو بعيد، إذ لو كان سليمان عليه السلام لأظهره السياق باسمه، ولما أخفاه. لأنه المقصود بالذكر، ولأن سياق النظم الجليل جاء لبيان جانب من شؤونه، وما من الله عليه به. فلا داعي إذاً لإخفاء اسمه عند هذا الموقف الباهر.

ولهذا قال الإمام القرطبي: "ولا يصح في سياق الكلام مثل هذا التأويل".

وأكثر المفسرين على أن الذي عنده علم من الكتاب هو آصف بن برخيا؛ كاتب سليمان عليه السلام وكان صديقاً، يعلم اسم الله الأعظم. وأن الكتاب الذي كان عنده علم منه هو التوراة. أو علم الوحي والشرائع. أو هو اللوح.

وقيل: إنه الخضر. وقيل: أنه جبريل عليه السلام. وليس على ما ذكر دليل صحيح[1].

يقول الأستاذ سيد قطب "وليس فيما قيل تفسير، ولا تعليل مستيقن. والأمر أيسر من هذا كله، حين ننظر إليه بمنظار الواقع. فكم في هذا الكون من أسرار لا نعلمها! وكم فيه من قوى لا نستخدمها! وكم في النفس البشرية من أسرار، وقوى لا نهتدي إليها! فحيثما أراد الله هدى من يرد إلى أحد هذه الأسرار، وإلى واحدة من هذه القوى. جاءت الخارقة التي لا تقع في مألوف الحياة، وجرت بإذن الله وتدبيره وتسخيره، حيث لا يملك من لم يرد الله أن يجريها على يديه أن يجريها"[2].

قلت: ولو كان في تعيينه فائدة، ما أعرض القرآن عن ذلك. والقرآن الكريم لم يعينه. ونحن على منهج القرآن نسير. ويكفينا في ذلك أن نعلم أنه أحد جند سليمان عليه السلام وأن الله تعالى أمده بقوة خارقة، وعلم واسع، ولا يعلم حقيقة ذلك إلا الله.

****

---

(١) ((تفسير الطبري))٩/٥٧٩ ((تفسير الزمخشري)) ٣/٣٥٣ ((تفسير الرازي))٢٣/٢١١ ((تفسير القرطبي)) ٧/٥٠٨٧ ((تفسير ابن كثير)) ٣/٣٦٤ ((الدر المنثور)) ٥/٢٥٠.

(٢) ((في ظلال القرآن)) ٥/٢٦٤١.

حقق الله تعالى رجاء سليمان عليه السلام فرأى العرش مستقراً عنده، فاستشعر نعمة الله تعالى عليه. فأعلن أن هذا بلاء يحتاج إلى عون من الله تعالى، ليتقوى عليه. وأنه ابتلاء يحتاج إلى يقظة منه ليجتازه. كما أنه يحتاج كذلك إلى معرفة النعمة، والشعور بفضل المنعم، فينال منه زيادة النعمة، وحسن المعونة.

﴿ قَالَ هَذَا مِن فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ* ﴾.

وهنا تبدو ثمة العابد الصالح الحريص على رضا مولاه. الذي يعلم أن الله غني عن شكر الشاكرين. فمن شكر فإنما يشكر لنفسه، فينال من الله زيادة النعمة، وحسن المعونة على اجتياز الابتلاء. ومن كفر، فإن الله غني عن الشكر، كريم يعطي عن كرم، لا عن ارتقاب الشكر على العطاء.

قال تعالى ﴿ وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ* ﴾ إبراهيم (٧).

لقد استعان الملك الصالح ــ على نشر الدين الصحيح، وبناء المجتمع الفاضل ــ بالله تعالى، فحقق الله رجاءه، وزاده من العطاء، وأسبغ عليه نعمه التي لا تحصى، ومدحه في العديد من آيات القرآن الكريم.

قال تعالى ﴿ وَلِسُلَيْمَانَ الرِّيحَ عَاصِفَةً تَجْرِي بِأَمْرِهِ إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا وَكُنَّا بِكُلِّ شَيْءٍ عَالِمِينَ* وَمِنَ الشَّيَاطِينِ مَن يَغُوصُونَ لَهُ وَيَعْمَلُونَ عَمَلاً دُونَ ذَلِكَ وَكُنَّا لَهُمْ حَافِظِينَ* ﴾ الأنبياء (٧٨ ــ ٨٢) .

وقال سبحانه ﴿ وَلِسُلَيْمَانَ الرِّيحَ غُدُوُّهَا شَهْرٌ وَرَوَاحُهَا شَهْرٌ وَأَسَلْنَا لَهُ عَيْنَ الْقِطْرِ وَمِنَ الْجِنِّ مَن يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِ وَمَن يَزِغْ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنَا نُذِقْهُ مِنْ

عَذَابِ السَّعِيرِ * يَعْمَلُونَ لَهُ مَا يَشَاءُ مِن مَّحَارِيبَ وَتَمَاثِيلَ وَجِفَانٍ كَالْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَّاسِيَاتٍ اعْمَلُوا آلَ دَاوُودَ شُكْراً وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ * فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ الْمَوْتَ مَا دَلَّهُمْ عَلَى مَوْتِهِ إِلَّا دَابَّةُ الْأَرْضِ تَأْكُلُ مِنسَأَتَهُ فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ الْجِنُّ أَن لَّوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ الْغَيْبَ مَا لَبِثُوا فِي الْعَذَابِ الْمُهِينِ * ﴾ سبأ (١٢ ــ ١٤).

وقال أيضاً ﴿ قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكاً لَّا يَنبَغِي لِأَحَدٍ مِّنْ بَعْدِي إِنَّكَ أَنتَ الْوَهَّابُ * فَسَخَّرْنَا لَهُ الرِّيحَ تَجْرِي بِأَمْرِهِ رُخَاء حَيْثُ أَصَابَ * وَالشَّيَاطِينَ كُلَّ بَنَّاء وَغَوَّاصٍ * وَآخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِي الْأَصْفَادِ هَذَا عَطَاؤُنَا فَامْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ * ﴾ ص (٣٤ ــ ٣٩).

يقول الخطيب الشربيني "وفي ذلك إشارة إلى أن من خدم كتاب الله حق الخدمة كان الله تعالى معه، كما ورد في شرعنا (كُنْتُ سَمْعَهُ الَّذِي يَسْمَعُ بِهِ وَبَصَرَهُ الَّذِي يُبْصِرُ بِهِ وَيَدَهُ الَّتِي يَبْطِشُ بِهَا) [1].

****

أمارات النصر، ومقدمات الإيمان

يمضي سليمان عليه السلام في تهيئة المفاجآت للملكة القادمة عما قليل، ليحملها على الإيمان بالله تعالى، فيأمر من حوله أن يغيروا المعالم المميزة للعرش، فقال:

﴿ نَكِّرُوا لَهَا عَرْشَهَا نَنظُرْ أَتَهْتَدِي أَمْ تَكُونُ مِنَ الَّذِينَ لَا يَهْتَدُونَ * فَلَمَّا جَاءتْ قِيلَ أَهَكَذَا عَرْشُكِ قَالَتْ كَأَنَّهُ هُوَ وَأُوتِينَا الْعِلْمَ مِن قَبْلِهَا وَكُنَّا مُسْلِمِينَ * وَصَدَّهَا مَا

---

(١) ((السراج المنير)) ٣/٩٩.

والحديث أخرجه البخاري عن أبي هريرة. كتاب الرقاق. باب التواضع ١١/٤٣٠.

كَانَت تَّعْبُدُ مِن دُونِ اللَّهِ إِنَّهَا كَانَتْ مِن قَوْمٍ كَافِرِينَ * قِيلَ لَهَا ادْخُلِي الصَّرْحَ فَلَمَّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجَّةً وَكَشَفَتْ عَن سَاقَيْهَا قَالَ إِنَّهُ صَرْحٌ مُّمَرَّدٌ مِّن قَوَارِيرَ قَالَتْ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ*﴾.

والتنكير: التغيير. أي غيروا في معالمه المميزة له.

وإنما فعل ذلك ليختبر ذكاءها وفطنتها. ويحملها على الإسلام. وكأنه أحب أن تتعرف على نبوته. لأن انتقال العرش من المكان البعيد دليل على قدرة الله تعالى، وعلى صدق سليمان عليه السلام فلما جاءت الملكة وجدت مفاجأة ضخمة لم تكن تختر لها ببال. فقد رأت عرشها مستقراً عند سليمان عليه السلام ــ وهي التي تركته في بلادها، وعليه الحراس والأقفال ــ فكيف جاء إذن؟ ومن الذي جاء به؟. وقبل أن تصل إلى قرار فوجئت بمن يقول لها (أَهَكَذَا عَرْشُكِ)؟ (قَالَتْ كَأَنَّهُ هُوَ) أي يشبهه ويقاربه.

وفي هذا الرد دليل على ذكاء هذه الملكة، وفطنتها، فإنها فلم تقل: إنه هو، فتثبت. وهي التي تركته في بلادها، وقد رأت ما فيه من التغيير والتبديل، والزيادة والنقصان. ولم تقل: ليس هو، فتنفي. وهي تراه بكثير من معالمه وصفاته. ولم تقل: لا أدري، لأن ذلك غباء وبلادة. فخرجت من هذا السؤال بهذه الإجابة الذكية اللبقة، والتي ما كان يصح في هذا الموقف غيرها.

ويبدو أن المرأة قد استعدت للتسليم لسليمان عليه السلام وللإسلام معه قبل قدومها. ولهذا قالت ﴿ وَأُوتِينَا الْعِلْمَ مِن قَبْلِهَا وَكُنَّا مُسْلِمِينَ ﴾.

وهنا يتداخل السياق ــ بكلام رب العزة سبحانه أو بكلام سليمان عليه السلام ــ فيبين أن السبب الذي منعها من الإيمان بالله تعالى، وصدها عن الإسلام له أنها نشأت في قوم كافرين.

ثم يكشف لها سليمان عليه السلام عن مفاجأة أخرى لم يكن كشف عنها من قبل.

لقد كانت المفاجأة قصراً من البلور، أقيمت أراضيه فوق الماء، يحول الزجاج بينه وبين الماشي، فإذا رآه من لم يعرف أمره حسب أنه ماء.

وقد روي أن سليمان عليه السلام أمر ــ قبل قدومها ــ ببناء قصر من زجاج أبيض، كالماء بياضاً، ثم أرسل الماء تحته، وألقى فيه السمك وغيره، ووضع سريره في صدره، فجلس عليه، وعكف عليه الإنس والجن والطير. وإنما فعل ذلك ليزيدها استعظاماً لأمره، وتحققاً لنبوته" (١).

****

﴿ قِيلَ لَهَا ادْخُلِي الصَّرْحَ فَلَمَّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجَّةً وَكَشَفَتْ عَن سَاقَيْهَا قَالَ إِنَّهُ صَرْحٌ مُّمَرَّدٌ مِّن قَوَارِيرَ قَالَتْ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ* ﴾

والصرح: القصر المشيد. وكل بناء عال مرتفع يسمى صرحاً. ومنه قول فرعون ﴿ يَا هَامَانُ ابْنِ لِي صَرْحاً لَّعَلِّي أَبْلُغُ الْأَسْبَابَ* ﴾ غافر (٣٦). واللجة: الماء المتجمع الكثير. والممرد: الأملس. والقوارير: جمع قارورة، وهي الزجاجة.

وإنما فعل ذلك ليريها ملكاً هو أعز من ملكها، وسلطاناً هو أعظم من سلطانها، فيحملها على الإيمان بالله، فلما رأته حسبته ماء متجمعاً، فكشفت عن ساقيها، لا تشك أنه ماء تخوضه. عندئذ كشف لها سليمان عليه السلام عن سره، فقال﴿ إِنَّهُ صَرْحٌ مُّمَرَّدٌ مِّن قَوَارِيرَ﴾.

وأمام هذه المفاجآت التي أدهشت تلك الملكة، والعجائب التي تعجز بني

---

(١) ((تفسير الرازي)) ٢١٥/٢٣، ((تفسير النسفي)) ٢١٤/٣.

البشر ــ والتي تدل على أن الله تعالى سخر لسليمان عليه السلام قوى أكبر من طاقة البشر ــ رجعت المرأة إلى الله، معترفة بظلمها لنفسها فيما سلف من عبادة غيره. وأعلنت إيمانها به سبحانه، وإسلامها مع سليمان عليه السلام.

﴿ قَالَتْ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ* ﴾

"لقد اهتدى قلب المرأة واستنار. وعلمت أن الإيمان بالله ليس استسلاماً لأحد من خلقه ــ ولو كان هو سليمان النبي المرسل، صاحب هذا المعجزات ــ إنما الإسلام إسلام لله رب العالمين، ومصاحبة للمؤمنين به، والداعين إلي طريقه على سنة المساواة.

لقد سجل السياق هذه اللفة، وأبرزها للكشف عن طبيعة الإيمان بالله، والإسلام له، فهي العزة التي ترفع المغلوبين إلى صف الغالبين، بل التي يصبح فيها الغالب والمغلوب أخوين في الله، لا غالب منهما ولا مغلوب، هما أخوان في الله على قدم المساواة" (١).

وقد اختلف المفسرون في زواج سليمان عليه السلام من هذه الملكة؟

ولم يرد على ذلك دليل صحيح. ولا يترتب علي معرفته كبير فائدة، فترك الحديث عنه مع عدم ورود الدليل أفضل. والله أعلم.

يقول الإمام الرازي: وليس لذلك ذكر في كتاب، ولا في خبر مقطوع به"(٢).

****

(١) ((في ظلال القرآن)) ٥/٢٦٤٣.

(٢) ((تفسير الرازي)) ٢٣/٢١٥.

المبحث الثاني

دعائم المجتمع الفاضل

في ضوء القصة

إن الهدف المنشود من بعثة الأنبياء والمرسلين هو صياغة الفرد الربـاني. وإقامة الأسرة الربانية. وبناء المجتمع الرباني. وعندما يلي الصالحون من عباد الله مقاليد الأمور في الأرض فإنهم يعملون جاهدين على تحقيق هـذا الهـدف ﴿الَّذِينَ إِن مَّكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَـرُوا بِـالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنكَرِ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ*﴾ الحج (٤١).

ولهذا مدح القرآن ذا القرنين، الذي استغل علمه، ووجه قواه لمحاربة أهـل الشر، ومعونة أهل الإيمان.

وسليمان عليه السلام ــ وهو مصلح من الصالحين، ونبي من أنبياء الله المرسـلين ــ كان حريصاً على بناء المجتمع الفاضل الموصول بالله تعالى على الركـائز القويمة، والدعائم الأصيلة.

وقد دفعه حرصه هذه على أن يجند أهل بيته لنشر دعوته، وبناء مجتمعه.

فقد أخرج الإمام البخاري عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه عَنْ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ:

(قَالَ سُلَيْمَانُ بْنُ دَاوُدَ عَلَيْهِمَا السَّلَام لَأَطُوفَنَّ اللَّيْلَةَ بِمِائَةِ امْرَأَةٍ تَلِدُ كُلُّ امْـرَأَةٍ غُلَامًا يُقَاتِلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَقَالَ لَهُ الْمَلَكُ قُلْ إِنْ شَاءَ اللَّهُ فَلَمْ يَقُلْ وَنَسِيَ فَأَطَـافَ بِهِنَّ وَلَمْ تَلِدْ مِنْهُنَّ إِلَّا امْرَأَةٌ نِصْفَ إِنْسَانٍ قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَوْ قَالَ

إِنْ شَاءَ اللَّهُ لَمْ يَحْنَثْ وَكَانَ أَرْجَى لِحَاجَتِهِ) [1].

بل أنه كان حريصاً على تجنيد الكون كله لتحقيق هذا الغرض. ولهذا كون جيشه من الجن والإنس والطير. قال تعالى ﴿ وَحُشِرَ لِسُلَيْمَانَ جُنُودُهُ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ وَالطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ* ﴾.

وتأتي قصتنا هذه لتصور جانباً من حياة سليمان عليه السلام فتبين لنا الدعائم التي قام عليها ملكه، والتي هي ــ في الوقت ذاته ــ دعائم كل مجتمع فاضل. لما تقرر فيها من الدعائم الأصيلة والركائز القويمة ــ المادية والروحية ــ التي تفي بقيام الدولة النموذجية الفاضلة.

وعندما نستعرض قصة سليمان عليه السلام في سورة النمل، يتبين لنا أن أهم الدعائم الأصيلة، والركائز القويمة لقيام الدولة النموذجية، والمجتمع الفاضل هي:

(العلم ــ القوة ــ الرسالة ــ القائد ــ الشعب ــ المال ــ الشورى)

تلك هي أهم المقومات التي يقوم عليها المجتمع الفاضل ــ في ضوء القصة ــ والتي يحرص الإسلام على بناء المجتمع الإسلامي على أساسها، ليكون مجتمعاً نموذجاً يحتذي به في عمارة الأرض، وتطبيق منهج رب العالمين.

وفي الصفحات التالية نعرض بمشيئة الله تعالى ــ بشيء من التفصيل ــ لبيان تلك الدعائم، من خلال هذه القصة الكريمة. والله المستعان علي ذلك.

****

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب النكاح. باب قول الرجل: لأطوفن الليلة على نسائي. ٩/ ٣٣٩ حديث (٥٢٤٢).

العلم في ضوء القصة

العلم: هو نور العقول والقلوب. وهو الوسيلة إلى معرفة قوانين الوجود، وسنن الطبيعة، لتسخير ما يمكن تسخيره منها في منافع الدولة. وهذا هو العلم النافع، وأهمه العلم بالله ﷻ. فلا بقاء لجوهر المجتمع، ولا كفالة لمستقبله إلا بالعلم.

وما أحسن قول القائل:

بالعلم والمال يبني الناس ملكهم ولم يبن ملك على جهل وإقلال

والأمة العاقلة هي التي تعرف للعلم فضله، وللمعلم مكانته. ولهذا قال الشاعر:

قم للمعلم وفه التبجيلا كاد المعلم أن يكون رسولاً

وقد كان ابن عباس ﷺ ــ وهو حبر الأمة ــ يمسك بلجام دابة زيد بن ثابت ﷺ ويقودها وهو يقول: هكذا أمرنا أن نفعل بعلمائنا.

وكان عمر ﷺ يقدم ابن عباس على غيره من أقرانه، ويجلسه مع أشياخ بدر، فإذا سئل عن ذلك؟ يقول: ذلكم فتى الكهول، إن له قلباً عقولاً، ولساناً سؤلاً.

ومن هنا اتبع موسى ﷺ الخضر، وقال له بكل أدب جم، وخلق رفيع ﴿ هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَى أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْداً* ﴾ الكهف(٦٦).

****

والذي يطالع قصة سليمان عليه السلام في سورة النمل، يتجلى له عناية القصة بالعلم من أولها إلى آخرها، بل إن الحديث عن العلم ليكاد يبرز في كل مشهد من مشاهدها.

وأول ما يلفت النظر إلى ذلك هو افتتاح القصة بامتنان الله تعالى على داود وسليمان عليهما السلام بالعلم، دون غيره من سائر النعم الجليلة التي أنعم بها عليهما، كالملك وغيره، فيقول تعالى ﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ عِلْماً﴾.

وتبدأ القصة بتلك الإشارة، لتبرز لنا قيمة العلم، وعظم المنة به. لأن العلم هو القيمة العليا التي تستأهل الذكر والشكر. فلا يذكر الملك في صدد الحديث عن العلم، لأن الملك أصغر من أن يذكر في هذا المجال.

ابتدأت القصة بالحديث عن العلم، لأنها جاءت لتصوغ لنا ملامح المجتمع الفاضل، ودعائم الدولة النموذجية. والعلم هو أهم أركان الدولة النموذجية، وأول درجة في سلم الحضارة الفاضلة.

ولهذا كان مبدأ الوحي الإلهي على قلب النبي ﷺ الأمر بالعلم والقراءة. فقال تعالى ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ* خَلَقَ الْإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ* اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ* الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ*عَلَّمَ الْإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ*﴾ العلق (١ـ٥).

فالعلم أول طرق الوحي، وأول درجة في سلم الحضارة، وأهم أركان الدولة النموذجية. ومن ثم ابتدأت به قصتنا، كما ابتدئ به الوحي على قلب محمد ﷺ.

مكانة العلم في الإسلام

وقد جاءت الآيات القرآنية، والأحاديث النبوية تترى في الحض على طلب العلم، ومدح العلماء.

قال تعالى ﴿ يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ﴾ المجادلة (١١). وقال سبحانه ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ* ﴾ الزمر (٩) وقال أيضاً ﴿ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاء ﴾ فاطر(٢٨).

وعَنْ أَبِي الدَّرْدَاءِ ﷺ قال سَمِعْتُ رَسُولَ ﷺ يَقُول:

(مَنْ سَلَكَ طَرِيقًا يَبْتَغِي فِيهِ عِلْمًا سَلَكَ اللَّهُ بِهِ طَرِيقًا إِلَى الْجَنَّةِ.

وَإِنَّ الْمَلَائِكَةَ لَتَضَعُ أَجْنِحَتَهَا رِضَاءً لِطَالِبِ الْعِلْمِ.

وَإِنَّ الْعَالِمَ لَيَسْتَغْفِرُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ حَتَّى الْحِيتَانُ فِي الْمَاءِ.

وَفَضْلُ الْعَالِمِ عَلَى الْعَابِدِ كَفَضْلِ الْقَمَرِ عَلَى سَائِرِ الْكَوَاكِبِ.

إِنَّ الْعُلَمَاءَ وَرَثَةُ الْأَنْبِيَاءِ وإِنَّ الْأَنْبِيَاءَ لَمْ يُوَرِّثُوا دِينَارًا وَلَا دِرْهَمًا إِنَّمَا وَرَّثُوا الْعِلْمَ فَمَنْ أَخَذَ بِهِ أَخَذَ بِحَظٍّ وَافِرٍ) (١).

وفي الحديث إشارة إلى حرص الملائكة ــ وهم في السموات العلا ــ على مجالس العلم. وأنهم يستمعون العلم في أدب وخشوع.

فالأجدر ببني آدم أن يكونوا أشد حرصاً من الملائكة على ذلك، وأن يكونوا أكثراً خشوعاً في استماع العلم. كما كان حال الصحابة ﷺ إذ كانوا يستمعون إلى النبي ﷺ وكأن على رءوسهم الطير.

والله تعالى يبارك الرحلة في طلب العلم، ويسهل لصاحبها بذلك طريقاً إلى

---

(١) أخرجه أبو داود في سننه. كتاب العلم. باب الحث على طلب العلم. ١٥٧٦/٣ حديث (٣٦١٤). والترمذي في سننه كتاب أبواب العلم. باب ما جاء في فضل الفقه على العبادة. ٤٧٢/٤ حديث (٢٦٨٢). وقال الترمذي: حديث حسن.

الجنة، ويجعله كمن خرج في سبيل الله تعالى.

أخرج الترمذي عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ ﷺ قَالَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ (مَنْ خَرَجَ فِي طَلَبِ الْعِلْمِ كَانَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ حَتَّى يَرْجِعَ)(١).

وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ قَالَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ (وَمَنْ سَلَكَ طَرِيقًا يَلْتَمِسُ فِيهِ عِلْمًا سَهَّلَ اللَّهُ لَهُ بِهِ طَرِيقًا إِلَى الْجَنَّةِ) (٢).

والإكثار من طلب العلم ــ في نظر الإسلام ــ أفضل من الإكثار من العبادات.

فعَنْ أَبِي أُمَامَةَ الْبَاهِلِيِّ ﷺ قَالَ ذُكِرَ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ رَجُلَانِ أَحَدُهُمَا عَابِدٌ وَالْآخَرُ عَالِمٌ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ (فَضْلُ الْعَالِمِ عَلَى الْعَابِدِ كَفَضْلِي عَلَى أَدْنَاكُمْ ثُمَّ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ وَأَهْلَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرَضِينَ حَتَّى النَّمْلَةَ فِي جُحْرِهَا وَحَتَّى الْحُوتَ لَيُصَلُّونَ عَلَى مُعَلِّمِ النَّاسِ الْخَيْرَ)(٣).

وأخرج ابن أبي شيبة والحاكم عن عمرو بن قيس ﷺ عن النبي ﷺ قال (فضل العلم خير من فضل العبادة)(٤).

وفي معجم الطبراني عَنْ أَبِي سَلَمَةَ بن عَبْدِ الرَّحْمَنِ بن عَوْفٍ عَنْ أَبِيهِ ،

---

(١) أخرجه الترمذي في الموضع السابق وقال: حديث حسن.

(٢) أخرجه الإمام البخاري. كتاب العلم. باب العلم قبل القول والعمل ١/١٥٩. والإمام مسلم. فضل الاجتماع على تلاوة القرآن٤٨٦٧.

(٣) أخرجه الترمذي في الموضع السابق. وقال: حديث حسن.

(٤) أخرجه الحاكم في ((المستدرك)) ١/٣٠٥. وابن أبي شيبة في ((المصنف)) ٦ / ١٨٧.

قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ (يَسِيرُ الْفِقْهِ خَيْرٌ مِنْ كَثِيرِ الْعِبَادَةِ)[1].

وإنما صار العلم خير من العبادة، لأن نفع العبادة ــ في الغالب الأعم مقصور على صاحبها. وأما العلم فإن نفعه يتجاوز صاحبه إلى غيره. ومن ثم فإن ثواب العلم لا ينقطع بموت صاحبه.

أخرج الإمام مسلم عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ (إِذَا مَاتَ الْإِنْسَانُ انْقَطَعَ عَمَلُهُ إِلَّا مِنْ ثَلَاثٍ صَدَقَةٌ جَارِيَةٌ وَعِلْمٌ يُنْتَفَعُ بِهِ وَوَلَدٌ صَالِحٌ يَدْعُو لَهُ)[2].

ولقد وصل الإسلام بالعلم إلى ذروة التشريف والتكريم. وبلغ به أسمى المراتب والغايات، حين جعل العلماء ورثة الأنبياء.

وكفى بالعلم شرفاً أن جعله الله صفة من صفاته العلا. واشتق منه اسماً من أسمائه الحسنى. فالعليم من أسماء الله الحسنى. والعلم صفة من صفاته العليا.

وما فضل الإنسان على سائر المخلوقات إلا بالعلم. فالملائكة حين سجدت له، لم تدرك أسرار هذا التكريم، حتى أظهر الله لهم شرف آدم بالعلم الذي أعطاه إياه.

قال تعالى ﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُواْ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاء وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لاَ تَعْلَمُونَ* وَعَلَّمَ آدَمَ الأَسْمَاء كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ فَقَالَ أَنبِئُونِي

---

(١) ((المعجم الكبير)) للطبراني - ١ / ١٢٩.

(٢) أخرجه الإمام مسلم. كتاب الوصية. باب ما يلحق الإنسان من الثواب بعد وفاته ١٤/٣ وأبو داود كتاب الوصايا باب ما جاء في الصدقة على الميت ١٢٥٨/٣.

بِأَسْمَاء هَـؤُلاء إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ* قَالُواْ سُبْحَانَكَ لاَ عِلْمَ لَنَا إِلاَّ مَا عَلَّمْتَنَـا إِنَّـكَ أَنتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ* قَالَ يَا آدَمُ أَنبِئْهُم بِأَسْمَآئِهِمْ فَلَمَّا أَنبَأَهُمْ بِأَسْمَآئِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُـل لَّكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُـونَ* وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلاَئِكَةِ اسْجُدُواْ لآدَمَ فَسَجَدُواْ إِلاَّ إِبْلِيسَ أَبَى وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ*﴾ البقرة(٢٩ ــ ٣٤).

وامتن الله تعالى على نبيه ﷺ بمقام العلم. فقال ﴿ وَأَنزَلَ اللّهُ عَلَيْكَ الْكِتَـابَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ اللّهِ عَلَيْكَ عَظِيماً*﴾ النساء(١١٣).

ومدح الملائكة المقربين بقوله ﴿وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ* كِرَاماً كَاتِبِينَ* يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ*﴾ الانفطار(١٠ ــ ١٢).

وأكثر القرآن الكريم من الثناء على أصحاب العلم الـصالح، وبـالغ فـي فضلهم، حتى ارتضى شهادتهم على أعظم عقائد الدين. فقال تعالى﴿شَهِدَ اللّهُ أَنَّهُ لاَ إِلَـهَ إِلاَّ هُوَ وَالْمَلاَئِكَةُ وَأُوْلُواْ الْعِلْمِ قَآئِمَاً بِالْقِسْطِ لاَ إِلَـهَ إِلاَّ هُـوَ الْعَزِيـزُ الْحَكِيمُ﴾ آل عمران(١٨).

كما ارتضى شهادة الصالحين منهم على القرآن والإسلام. فقال تعالى ﴿ أَوَلَمْ يَكُن لَّهُمْ آيَةً أَن يَعْلَمَهُ عُلَمَاء بَنِي إِسْرَائِيلَ*﴾ الشعراء(١٩٧) ﴿ قُلْ كَفَى بِاللّهِ شَـهِيداً بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِندَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ﴾ الرعـد(٤٣) ﴿ فاسْأَلِ الَّذِينَ يَقْرَؤُونَ الْكِتَابَ مِن قَبْلِكَ﴾ يونس(٩٤) ﴿ فَاسْأَلُواْ أَهْلَ الذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لاَ تَعْلَمُونَ﴾ النحل(٤٣).

وحصر القرآن الكريم في العلماء كمال الصفات الطيبة. فقال تعالى ﴿ وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ*﴾ العنكبـوت(٤٣) وخصهم بالخـشية الكاملة دون سواهم. فقال تعالى ﴿ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاء﴾ فاطر(٢٨).

العلم تكليف إسلامي

ولم يكتف الإسلام بتقرير شرف العلم والعلماء. وإنما كلفنا بـــالعلم، وحثنـــا عليه، تارة بالأمر والإلزام، وتارة على سبيل الحث والندب، حسب نوع العلـــم وموضوعه. فعلم العقائد كلفنا به الإسلام على سبيل الوجوب العيني. وأما علـــم الفروع، وتفصيلات الأدلة، فقد كلفنا به الإسلام على سبيل الوجوب الكفائي.

****

العلم في المنظور الشرعي

ومما يلفت النظر في هذه القصة مجيء العلم منكراً في أول آياتها.

فيقول تعالى ﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ عِلْماً﴾ والتنكير يفيد العمـــوم. أي آتينا داود وسليمان علماً واسعاً من علوم الدين والدنيا، علماً هو مـــن أشـــرف العلوم والمعرفة، لأنه جامع لخيري الدنيا والآخرة.

فلم تذكر الآية نوع العلم، ولا موضوعه، لأن جنس العلم هـــو المقـــصود بالإبراز والإظهار. يقول العلامة أبو السعود والمحقق الألوسي "أي آتينـــا كـــل واحد منهما طائفة من العلم لائقة به من علم الشرائع والأحكام. وغير ذلك ممـــا يختص بكل منهما، كصنعة لبوس، ومنطق الطير"[1].

فالعلم المطلوب ــ من المنظور الشرعي ــ ليس علماً محدوداً، يتوقف على علوم الشريعة، والأحكام. إنما هو علم واسع، يشمل علوم الدنيا والدين، وكل ما يساعد على توثيق الصلة بالله تعالى، وعمارة الأرض، ونمو الحياة وتقدمها.

---

(١) ((تفسير أبي السعود)) ٢٤٨/٤، ((روح المعاني))٢٥٣/١٩.

والذي ينظر إلى آيات القرآن الكريم التي تناولت موضع العلم يتجلى له عناية القرآن الكريم بالعلم، واستفاضته في كل عنصر من عناصره.

فقد تناولت آيات القرآن موضع العلم بسعة بالغة، وذلك في تنوع أساليبه، وامتداده إلى آفاق شاملة لكل قضايا الكون والحياة والدين والدنيا[1].

ولهذا جاء العلم منكراً في قوله تعالى﴿ وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْماً﴾ طه آية (١١٤) وفي قوله ﷺ (وَمَنْ سَلَكَ طَرِيقًا يَلْتَمِسُ فِيهِ عِلْمًا سَهَّلَ اللَّهُ لَهُ بِهِ طَرِيقًا إِلَى الْجَنَّةِ)[2].

فالعلم الذي يُقبِل المسلم عليه، ويرحل لطلبه من أقصى المشارق والمغارب، ليس علماً معيناً. فكل ما يوسع منادح النظر. وكل ما يوثق صلة الإنسان بالوجود، ويفتح له آماداً أبعد من الكشف والإدراك. وكل ما يتيح له السيادة في العالم، والتحكم في قواه، والإفادة من ذخائره المكنونة. ذلك كله علم ينبغي التطلع له، والتضلع فيه. ويجب على المسلم أن يأخذ بسهم منه.

وكثيراً ما قرن القرآن بين العلم الشرعي والعلم الكسبي[3]. ومن ذلك قوله تعالى ﴿ الرَّحْمَنُ* عَلَّمَ الْقُرْآنَ* خَلَقَ الْإِنسَانَ* عَلَّمَهُ الْبَيَانَ* الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ* وَالنَّجْمُ وَالشَّجَرُ يَسْجُدَانِ* وَالسَّمَاء رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ*﴾ الرحمن (١ــ٧).

فقد جمعت الآيات بين نعمة العلم بالقرآن. ونعمة الخلق والوجود بعد العدم.

---

(١) ((المدخل إلى التفسير الموضوعي)) د/عبد الستار فتح الله سعيد(١٩١) بتصرف .

(٢) سبق تخريجه.

(٣) العلوم الكسبية: هي التي يستفيدها الإنسان بواسطة التفكر، واستعمال الحواس، والتجارب. كعلم الطب والهندسة والفلك، وغير ذلك.

لأن العلم بالقرآن يوصل إلى علوم الشرع. والإبصار في خلق البشر، والبحث في اختلاف الشمس والقمر، والتأمل في النجم والشجر، من أقوى الأدلة على وجود الواحد المقتدر.

فالله خلق الإنسان، وزوده بنعمة العلم لتحقيق الغاية المرجوة من الوجود، ولولا ذلك لما انتفع بنعمة الخلق أحد.

وأول صيحة نزلت على قلب النبي ﷺ تسمو بقدر القلم، وتنوه بقيمة العلم، وتعلن الحرب على الأمية، وتجعل اللبنة الأولى في بناء كل رجل عظيم أن يقرأ، وأن يتعلم ﴿ اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ* خَلَقَ الْإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ* اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ* الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ*عَلَّمَ الْإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ*﴾ العلق (١ـ٥).

فقد أمرت الآيات بالقراءة مرتين، وامتن الله بالعلم مرتين. ثم ذكر القلم؛ الذي هو أداة العلم، وقرن ذلك كله بخلق الإنسان. لأن البحث في خلق الإنسان، ومعرفة إعجاز الله تعالى في خلقه هاد يهدي إلى ذكر الله تعالى، وداع يدعو إلى الإيمان به.

أهمية العلوم المادية والكونية في الإسلام

إن علوم الدنيا شأنها ــ في تعميق الصلة بالله تعالى، والدعوة إلى الإيمان به ــ شأن علوم الدين. وعلوم الكون والحياة، ونتائج البحث المتواصل في ملكوت السماء والأرض شأنها ــ في تقرير التوحيد، وإثبات الإلوهية ــ شأن علوم الشريعة والأحكام. بل قد يُربط بها من النتائج ما يجعل معرفتها أولى بالتقديم من الاستبحار في علوم الشريعة.

وقد نبه القرآن الكريم ــ من خلال دعوته إلى التوحيد، والاستدلال على

قدرة الله الباهرة ــ إلى كثير من العلوم الكسبية. وحض على معرفة علوم الكون، وصنائع العالم. وحث على الانتفاع بكل ما يقع تحت نظرنا.

قال تعالى ﴿ قُلِ انظُرُواْ مَاذَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا تُغْنِي الآيَاتُ وَالنُّذُرُ عَن قَوْمٍ لاَّ يُؤْمِنُونَ ﴾ يونس(١٠١). وقال سبحانه ﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً مِّنْهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ الجاثية(١٣).

فلا يليق بالمسلمين ــ وهم الخاطبون بهذا ــ أن يفروا من وجه هذه المنافع العامة، وأن يحرموا أنفسهم فوائد التمتع بثمرات هذه القوى العظيمة التي أودعها الله لخلقه، في خزائن سماواته وأرضه.

ولهذا نص علماؤنا على أن تعلم تلك العلوم الكونية، وحذق هذه الصناعات الفنية فرض من فروض الكفايات، ما داموا في حاجة إليها، لمصلحة الفرد والمجتمع.

وذلك لأن البقاء في هذه الحياة للأصلح. والحياة في هذه الوجود للسلام المسلح. والأسلحة في كل عصر عامة ــ وفي هذا العصر خاصة ــ إنما تقوم على التمهر في العلوم، وعلى السبق في حلبة الصناعات والفنون. والويل كل الويل للضعيف. والحظ كل الحظ للقوي.

"فعلوم الكون الحياة في ــ نظر الإسلام ــ لا تقل في أهميتها عن علوم الشرع، لأنها مساوية لعلوم الآخرة في خدمة الدين، وتجلية حقائقه. غاية ما هنالك أن علوم الطبيعة تحتاج إلى دراسات أطول. أما العلم بالدين فميسور لمن أخلص له أياماً معدودات.

وليست دراسة الحقوق والقضاء أشرف في ذاتها من دراسة الطب، ولو بلغ صاحبها مبلغ أبي حنيفة. وإنما يرجح الرجل صاحبه في علمه بمقدار ما يسخر هذا العلم لنفع الناس، ابتغاء وجه الله، وانتظار ما لديه من مثوبة"(١).

ومن القصور أن نعتقد أن العلم ــ في الإسلام ــ محصور على علوم الشرعية، موقوف على علوم الدين، فنعكف على دراسة الفقه والحديث والتفسير، ونترك ما عداه من الدراسات الكونية والمادية. ومن الخطأ أن نطلق العنان للعلوم الكونية، بلا ضابط، ولا تهذيب.

فإننا نحتاج في ــ دراستنا ــ إلى العلوم الشرعية، والعلوم الكونية على السواء. لأن علوم الشريعة تهذب علوم الكون وتضبطها. وعلوم الكون تصون علوم الشريعة، وتؤيدها.

فانظر كيف هان المسلمون عندما تخلفوا في العلوم الكونية. واخترع غيرهم الطائرة والصاروخ والقنبلة. وتقدموا في الطب والهندسة والفلك، فبقي المسلمون في ذيل الركاب، كالريشة في الهواء، يعبث بها الريح كيفما شاء؟

ولهذا فقد عاب أبو حامد الغزالي رحمه على أهل قرية، لقي فيها مائة من علماء الحديث والفقه، ولم يجد فيها طبيباً واحداً، يطبب نساء المسلمين.

ثم انظر إلى آثار العلم المادي، الذي لم يهذبه العلم الشرعي، هل خلف إلا الكفر والإلحاد؟ وهل ترك أصحابه للبشرية إلا الدمار والهلاك؟.

فالعلم في الإسلام هو الذي يربط الدنيا بالدين. والعالم المسلم هو الذي يستعين بالعلم المادي في ترسيخ العقيدة، واستنباط العلم الشرعي. وهو الذي

---

(١) ((خلق المسلم)) للشيخ محمد الغزالي (٢٠٢).

يستدل باختلاف الشمس والقمر، والجبال والشجر، والخلق والبشر، على وجود الواحد المقتدر.

فهل أقام الله تعالى حجة إبراهيم عليه السلام على قومه إلا بالنظر في ملكوت السموات والأرض، وتعاقب النجوم والكواكب؟ ﴿ وَكَذَلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ* ﴾ الأنعام (٧٥).

وهل استطاع ذو القرنين أن يحقق الأمن للناس، والدعوة إلى الله تعالى إلا باستخدام العلم المادي، وتسخير قوى الطبيعة للدعوة إلى الحق، وعمارة الأرض. ورد العلم إلى مصدره، وربطه بالإيمان.

﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَن ذِي الْقَرْنَيْنِ قُلْ سَأَتْلُو عَلَيْكُم مِّنْهُ ذِكْراً * إِنَّا مَكَّنَّا لَهُ فِي الْأَرْضِ وَآتَيْنَاهُ مِن كُلِّ شَيْءٍ سَبَباً *﴾ ﴿ كَذَلِكَ وَقَدْ أَحَطْنَا بِمَا لَدَيْهِ خُبْراً*﴾ ﴿ قَالَ مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْماً* آتُونِي زُبَرَ الْحَدِيدِ حَتَّى إِذَا سَاوَى بَيْنَ الصَّدَفَيْنِ قَالَ انفُخُوا حَتَّى إِذَا جَعَلَهُ نَاراً قَالَ آتُونِي أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْراً* فَمَا اسْطَاعُوا أَن يَظْهَرُوهُ وَمَا اسْتَطَاعُوا لَهُ نَقْبا* قَالَ هَذَا رَحْمَةٌ مِّن رَّبِّي فَإِذَا جَاء وَعْدُ رَبِّي جَعَلَهُ دَكَّاء وَكَانَ وَعْدُ رَبِّي حَقّاً*﴾ الكهف (٨٣، ٩١، ٩٥ ــ ٩٨).

ولم يقف القرآن الكريم ــ في ثنائه على العلم، ومدحه العلماء، ــ على علماء الشريعة، والعلم بالدين. وإنما أثنى على علماء الكون والمادة، وأصحاب العلم الكسبي، وكل من أوتي علماً نافعاً، من شأنه أن يبعث على توثيق الصلة بالله تعالى، ويساعد على عمارة الأرض، ونمو الحياة وتقدمها.

وحسبنا أن القرآن الكريم عندما نوه بفضل العلم، وجلال العلماء، إنما عني ــ في كثير من الآيات ــ العلماء الذين يعرفون عظمة الخالق من عظمة الخلق،

والعلم الذي ينشأ من النظر في النبات والحيوان، وشئون الطبيعة الأخرى.

قال تعالى ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ مُّخْتَلِفاً أَلْوَانُهَا وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ*وَمِنَ النَّاسِ وَالدَّوَابِّ وَالْأَنْعَامِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ كَذَلِكَ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاء إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ*﴾ فاطر (٢٧، ٢٨).

وقال سبحانه ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْعَالِمِينَ *﴾ الروم (٢٢).

وقال سبحانه ﴿ مَثَلُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاء كَمَثَلِ الْعَنكَبُوتِ اتَّخَذَتْ بَيْتاً وَإِنَّ أَوْهَنَ الْبُيُوتِ لَبَيْتُ الْعَنكَبُوتِ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ *إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِ مِن شَيْءٍ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ*

وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ*خَلَقَ اللَّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ*﴾ العنكبوت (٤١ ــ ٤٣).

وقال سبحانه﴿ هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاء وَالْقَمَرَ نُوراً وَقَدَّرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُواْ عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ مَا خَلَقَ اللَّهُ ذَلِكَ إِلاَّ بِالْحَقِّ يُفَصِّلُ الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ*

إِنَّ فِي اخْتِلاَفِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَمَا خَلَقَ اللّهُ فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَّقُونَ*﴾ يونس(٥،٦).

فسياق هذه الآيات يدل على أن الممدوحين فيها إنما هم العلماء العالمون بأمور الكون، وعلوم الدنيا. وهم الذين يستعينون بالعلم المادي في ترسيخ العقيدة، واستنباط العلم الشرعي. ويستدلون باختلاف الشمس والقمر، والجبال

والشجر، والخلق والبشر، على وجود الواحد المقتدر.

فأن إنزال الماء، وإخراج الثمرات، واختلاف الجبال والدواب والناس والأنعام، والليل والنهار. وخلق السموات والأرض والشمس والقمر. ومعرفة السنين والحساب. وملاحظة الأجرام الكونية. إنما هي علوم كونية باعثة على الإيمان، دعاية إلى التوحيد. ولهذا قال ابن مسعود ﷺ: ليس العلم عن كثرة الحديث، ولكن العلم عن كثرة الخشية. وعن مالك ﷺ: إن العلم ليس بكثرة الرواية، وإنما العلم نور يجعله الله في القلب[1].

فالعلم ــ في الإسلام ــ ليس خصماً للإيمان، ولا ضداً له. إنما هو دليل عليه، هاد يهدي إليه. وقد رأينا كثيراً من منصفي العلماء راسخين في العلم والإيمان، وكم سمعنا عن كثير من علماء الطب والهندسة والفلك والرياضيات والطبيعة يعترفون بوجود الخالق، ويؤمنون به.

إن العلم في الإسلام كالروح للجسد. وإن طبيعة الإسلام لتفرض على الأمة التي تنتسب إليه أن تكون أمة متعلمة. فإن حقائق الدين، وأحكام الشريعة ــ من أصول وفروع ــ ليست مجرد طقوس، إنما هي حقائق تستخرج من كتاب حكيم، وسنة واعية. وسبيل استخراجها لا يتوقف على مجرد القراءة. بل لابد من الفهم الدقيق، والفقه القوي، الذي يربط الدنيا بالدين، ويستعين بالعلم المادي في ترسيخ أحكام العلم الشرعي، ويستدل باختلاف الشمس والقمر والجبال والإنس والجن، على وجود الله تعالى ووحدانيته.

---

(١) ((تفسير ابن كثير)) ٣/٥٥٣.

ضوابط العلم المادي في الإسلام

والإسلام عندما أمر المسلمين بالبحث في علوم الكون والمادة لم يطلق لهم العنان. وإنما ضبط البحث في هذه العلوم بضوابط، وقيده بقيود.

الأصل الرباني للعلوم الكسبية

وهذا ضابط من أهم ضوابط البحث في العلوم المادية. وهو أصل قرره القرآن، ونبه عليه في كثير من المواطن، وأكده بشتى الصيغ والأساليب، حتى يتقرر، ويتمكن في النفوس.

فالعلوم الكسبية؛ المادية والكونية لا تقوم وحدها، إنما هي تابعة دائماً للجانب الوهبي الرباني. وكل علم يكتسبه الإنسان، إنما مرجعه دائماً إلى العقل الذي يفكر، والحواس التي استعملت، والجوارح التي استخدمت، وغير ذلك من ضروب الفضل الرباني المحض[1].

والعقل هبة من الله، فمرجع علم الإنسان ابتداء وانتهاء إلى الله تعالى. ولو أمسك الله شيئاً منها لمسخت علوم الناس، فما استطاعوا مضياً ولا قياماً.

وقد أكثر القرآن الكريم من تذكير الإنسان بهذا الأصل، حتى لا يطيش صواب نفسه، بغرور العلم الجزئي التبعي. قال تعالى ﴿ أَفَرَأَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ* أَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُ أَمْ نَحْنُ الزَّارِعُونَ*) الواقعة (٦٣، ٦٤).

﴿ الرَّحْمَنُ* عَلَّمَ الْقُرْآنَ* خَلَقَ الْإِنسَانَ* عَلَّمَهُ الْبَيَانَ* الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ* وَالنَّجْمُ وَالشَّجَرُ يَسْجُدَانِ* وَالسَّمَاء رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ*﴾ الرحمن (١ – ٧).

---

(١) ((المدخل إلى التفسير الموضوعي)) (٢١٥).

﴿ اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ* خَلَقَ الْإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ* اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ*الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ*عَلَّمَ الْإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ*﴾ العلق (١، ٥).

﴿وَعَلَّمْنَاهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَّكُمْ لِتُحْصِنَكُم مِّن بَأْسِكُمْ فَهَلْ أَنتُمْ شَاكِرُونَ﴾ الأنبياء(٨٠).

﴿وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّن بُيُوتِكُمْ سَكَناً وَجَعَلَ لَكُم مِّن جُلُودِ الأَنْعَامِ بُيُوتاً تَسْتَخِفُّونَهَا يَوْمَ ظَعْنِكُمْ وَيَوْمَ إِقَامَتِكُمْ وَمِنْ أَصْوَافِهَا وَأَوْبَارِهَا وَأَشْعَارِهَا أَثَاثاً وَمَتَاعاً إِلَى حِينٍ*﴾ النحل(٨٠) (١).

وقد أشارت قصتنا إلى هذا المعنى كثيراً.

انظر إلى قول داود وسليمان عليهما السلام ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي فَضَّلَنَا عَلَى كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ*﴾ بعد قوله تعالى ﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ عِلْماً﴾. ثم أنظر قول سليمان عليه السلام بعدما سمع حديث النملة لأصحابها ﴿ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَى وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحاً تَرْضَاهُ وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ﴾.

فقد حمدا الله على نعمة العلم. ثم شكر سليمان عليه السلام ربه على العلم الذي وصله، بهذه العوالم المحجوبة المعزولة عن الناس. ودعا الله تعالى أن يوفقه للشكر، وأن يديم عليه نعمة العمل الصالح، وأن يدخله برحمته في عباده الصالحين.

ثم اقرأ معي قول سليمان ﴿ عليه السلام يَا أَيُّهَا النَّاسُ عُلِّمْنَا مَنطِقَ الطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَيْءٍ إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْفَضْلُ الْمُبِينُ﴾ ﴿هَذَا مِن فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي أَأَشْكُرُ أَمْ

---

(١) راجع ((المدخل إلى التفسير الموضوعي)) (٢١٤).

أَكْفُرُ وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ ﴾ فإنه رد الفضل إلى ربه، والعلم إلى مصدره.

العلم المحمود، والعلم المذموم

ومن ضوابط الإسلام للعلم أن قسم العلم إلى محمود ومذموم.

فالعلم المحمود في الإسلام: هو العلم الذي يستفيد من قوى الطبيعة، فيفيد البشرية، ويجلب النفع الصحيح للإنسانية، ويحقق لها المصالح المعتبرة شرعاً، ويدفع الضرر عنها. ويعمل على نمو الحياة، وتقدمها. ويبرز ما أودعه الله في الكون من قوانين وأسرار، تدل على أنه الواحد القهار. وهو الذي يصل العبد بخالقه، فيملأ قلبه يقيناً بالله، ويملأه عزماً أكيداً على فعل الطاعات، وهجر المحرمات.

ويدخل في هذا الضرب كل ما يحتاجه الناس في شئون دنياهم ومعاشهم، وما يحقق لهم عمارة الأرض. شأن علوم الزراعة والصناعة والأفلاك والطب والهندسة والكيمياء. ونحو ذلك.

ومن ذلك قول الله تعالى (وَعَلَّمْنَاهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَّكُمْ لِتُحْصِنَكُم مِّن بَأْسِكُمْ فَهَلْ أَنتُمْ شَاكِرُونَ) الأنبياء(٨٠). وقوله (وَاصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا وَلاَ تُخَاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُواْ إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ) هود (٣٧) وقوله (أَنِ اعْمَلْ سَابِغَاتٍ وَقَدِّرْ فِي السَّرْدِ وَاعْمَلُوا صَالِحاً إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ) سبأ (١١).

وأما العلم المذموم: فهو العلم الضار؛ الذي لا يحقق مصلحة معتبرة أو مباحة شرعاً، بل يقوم على الضرر والأذى، أو يجلب الشر والمفسدة، ويؤدي إلى الهلاك والدمار. وهذا النوع من العلوم منه ما يكون مذموماً لذاته، ومنه ما

يكون مذموماً باعتبار ما يلابسه.

فأما النوع الأول فإنه باطل من أصله، فيحرم تعلمه، أو تعليمه. شأن علم السحر. الذي حرمه الإسلام، ونسبه إلى الشياطين، وجعله نوعاً من أنواع الشرك.

قال تعالى ﴿ وَاتَّبَعُواْ مَا تَتْلُواْ الشَّيَاطِينُ عَلَى مُلْكِ سُلَيْمَانَ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ وَلَـكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُواْ يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ وَمَا أُنزِلَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَارُوتَ وَمَارُوتَ وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّى يَقُولاَ إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلاَ تَكْفُرْ فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ وَمَا هُم بِضَآرِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلاَّ بِإِذْنِ اللّهِ وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلاَ يَنفَعُهُمْ وَلَقَدْ عَلِمُواْ لَمَنِ اشْتَرَاهُ مَا لَهُ فِي الآخِرَةِ مِنْ خَلاَقٍ وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْاْ بِهِ أَنفُسَهُمْ لَوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ﴾ البقرة (١٠٢).

وأخرج النسائي عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ قَالَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ (وَمَنْ سَحَرَ فَقَدْ أَشْرَكَ)[١]. فهذا نص في أن الساحر مشرك. إذ لا يأتي السحر بدون شرك.

ولهذا كان حده القتل. فقد أخرج الترمذي عَنْ جُنْدُبٍ ﷺ قَالَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ (حَدُّ السَّاحِرِ ضَرْبَةٌ بِالسَّيْفِ) [٢].

وبهذا الحديث أخذ الإمام مالك وأحمد وأبو حنيفة ﷺ فقالوا: يقتل الساحر. وروي ذلك عن عمر وعثمان وابن عمر وحفصة وجندب بن كعب وابن سعد وعمر بن عبد العزيز ﷺ ولم ير الشافعي القتل بمجرد السحر، إلا أن عمل في سحره ما يبلغ الكفر. وبه قال ابن المنذر.

---

(١) أخرجه النسائي. باب الحكم في الساحرة. حديث (٤٠١١).

(٢) أخرجه الترمذي. كتاب الحدود. باب ما جاء في حد الساحر(١٤٠٦) ٣ / ٤٧٥.

والأول أولى للحديث. ولما جاء في صحيح البخاري عن بجالة بن عبدة قال "كتب عمر بن الخطاب: أن اقتلوا كل ساحر وساحرة. قال: فقتلنا ثلاث سواحر"[1]. وقد عمل الناس بذلك في خلافة عمر من غير نكير.

وفي الموطأ " أن حفصة أمرت بقتل جارية لها سحرتها"[2].

وأما النوع الثاني ــ وهو ما يكون مذموماً باعتبار ما يلابسه من الظروف والأحوال ــ فإن هذا النوع من العلوم كثير. ومن ذلك:

- فصل العلوم المادية عن أصلها الشرعي، ووجهتها الدينية، والتعلق بالظواهر المادية، وإنكار الأصل الغيبي. قال تعالى ﴿ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ* يَعْلَمُونَ ظَاهِراً مِّنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ*﴾ الروم (٦، ٧) فالعلم الكسبي هنا لم يذم لذاته، بل لأن أصحابه اقتصروا على ظاهره، ولم يصلوا به إلى لبابه من الإيمان بالله ونبيه ﷺ.

- فصل العلم عن أصوله الوهبية، وجحود فضل الله فيه. ومن ذلك قول قارون ﴿ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ عِندِي﴾ القصص (٧٨) فقارون لم يكفر بالله، ولم ينكر الآخرة، وإنما جحد فضل الله في ماله، وادعى أنه حصل كنوزه بعلمه هو. فمدار الذم ليس دعواه أنه ثمر أمواله بعلمه وتخطيطه ــ فقد يكون هذا صحيحاً ومحموداً ــ ولكن الذم في دعوى الانفراد، ثم منع حق الغير في هذا المال.

---

(١) صحيح البخاري كتاب الجزية والموادعة حديث (٢٨١٥) دون الأمر بقتل السواحر. وأما الأمر بقتل السواحر فقد أخرجه أبو داود في الخراج والإمارة (٤٣ ــ ٣).

(٢) أخرجه مالك في العقول (١٦٢٤).

- استخدام العلم الصحيح استخداماً فاسداً. وذلك بأن يجعل وسيلة للمحرمات، كاستخدام العلم بالحساب في الربا، والعلم بالكيمياء في تقطير الخمر.

ومن ذلك قوله تعالى ﴿ وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا هَامَانُ ابْنِ لِي صَرْحاً لَّعَلِّي أَبْلُغُ الْأَسْبَابَ*أَسْبَابَ السَّمَاوَاتِ فَأَطَّلِعَ إِلَى إِلَهِ مُوسَى وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ كَاذِباً وَكَذَلِكَ زُيِّنَ لِفِرْعَوْنَ سُوءُ عَمَلِهِ وَصُدَّ عَنِ السَّبِيلِ وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلَّا فِي تَبَابٍ*﴾ غافر (٣٦، ٣٧).

وقوله في عاد ﴿ أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ آيَةً تَعْبَثُونَ* وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ* وَإِذَا بَطَشْتُم بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ*﴾ الشعراء (١٢٨ ــ ١٣٠).

فإن تشييد الصرح، وبناء المصانع ليس مذموماً لذاته. ولكن المذموم هنا هو استخدام العلم في الباطل والحرام.

- الإعجاب بالعلم إلى حد الغرور والكبر، الذي يؤدي بذويه إلى الكفر والإلحاد. قال تعالى ﴿ فَلَمَّا جَاءتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَرِحُوا بِمَا عِندَهُم مِّنَ الْعِلْمِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُون*﴾غافر(٨٣).

- جعل العلم الجزئي حاكماً على العلم الكلي، وجعل الحقائق العقلية، والتجارب المادية حكماً على الغيبيات، ولهذا قال تعالى ﴿ بَلْ كَذَّبُواْ بِمَا لَمْ يُحِيطُواْ بِعِلْمِهِ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ*﴾ يونس (٣٩).

- العلم الذي يؤدي إلى الجدل بالباطل. قال تعالى ﴿ وَيُجَادِلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ وَاتَّخَذُوا آيَاتِي وَمَا أُنذِرُوا هُزُواً﴾ الكهف(٥٦)

﴿وَجَادَلُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ﴾ غافر(٥).

فالعلم الذي يبعد القلب عن ربه علم فاسد، زائغ عن مصدره، وعن هدفه، لا يثمر سعادة لصاحبه، ولا للناس، إنما يثمر الشقاء والخوف والقلق والدمار. لأنه انقطع عن مصدره، وانحرف عن وجهته، وضل طريقه إلى الله تعالى.

يقول الأستاذ سيد قطب "ولقد انتهت البشرية اليوم إلى مرحلة جديدة من مراحل العلم ــ بتحطيم الذرة، واستخدامها ــ ولكن ماذا جنت البشرية حتى اليوم من هذا العلم، الذي لا يذكر أصحابه بالله، ولا يخشونه، ولا يحمدون له، ولا يتوجهون بعلمهم إليهم؟ ماذا جنت غير الضحايا الوحشية في قنبلتي ((هروشيما)) و((ناجازاكي)) وغير الخوف والقلق، الذي يؤرق جفون الشرق والغرب، وبتهديدهما بالتحطيم والدمار والفناء"(١).

كما نهى القرآن المسلمين عن الاشتغال بما ليس في تعلمه نفع، وعن تعلم العلوم التي لا يأتي من تعلمها نفع. قال تعالى ﴿وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ وَمَا يَنبَغِي لَهُ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْآنٌ مُّبِينٌ*﴾ يس (٦٩).

وكذلك نهى المسلمين عن الخوض في العلوم التي استأثر الله تعالى بها، والتي لا سبيل إلى معرفتها بالبحث والاجتهاد، كحقيقة ذات الله، وكيفية الصفات، وغير ذلك، مما سماه القرآن بالمتشابهات، وأخبر أنه لا يعلمه إلا الله. قال تعالى ﴿هُوَ الَّذِيَ أَنزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُّحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ في قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاء الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاء تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلاَّ اللّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِّنْ عِندِ

---

(١) ((في ظلال القرآن)) ٥/٢٦٣٣، ٢٦٣٤.

رَبَّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلاَّ أُوْلُواْ الأَلْبَابِ*﴾ آل عمران (٧).

فسمى الله هذا النوع متشابهات، ووصف من يطلب علمها بزيغ القلوب. وأمر برد علمها الحقيقي إلى الله وحده، وأخبر أن الراسخين في العلم يؤمنون بها كما جاءت. ومن ذلك قوله﴿ وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُم مِّنَ الْعِلْمِ إِلاَّ قَلِيلاً *﴾ الإسراء (٨٥) وقوله ﴿ وَعِندَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لاَ يَعْلَمُهَا إِلاَّ هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلاَّ يَعْلَمُهَا وَلاَ حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الأَرْضِ وَلاَ رَطْبٍ وَلاَ يَابِسٍ إِلاَّ فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ﴾ الأنعام (٥٩).

****

العلم سمة في مجتمع سليمان عليه السلام

وتشير القصة في كثير من آياتها إلى أن العلم كان سمة أساسية، وصفة رئيسة في جند سليمان عليه السلام فها هو الهدهد ــ أحد جنود سليمان عليه السلام ــ يسعى في طلب العلم، ومعرفة أحوال الناس، حتى قال لسليمان ﴿ عليه السلام أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِ وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍ بِنَبَإٍ يَقِينٍ *﴾.

والقصة تشير بذلك إلى أهمية العلم في حياة الجندي المسلم. وكيف كان هذا العلم سبباً في أن يخرج قوماً من الظلمات إلى النور؟

إنه الجندي الماهر الذي يعمل لدولته، ولدينه بفقه وعلم، فكان أثر ذلك ما رأيت من خير عم الدولة وغيرها.

بل إن القصة لتشير إلى أن أثر العلم في نشر الحضارات أعظم من أثر القوة. ألم تر أن الذي عنده علم من الكتاب، ما فاق الجني إلا بالعلم﴿ قَالَ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَيُّكُمْ يَأْتِينِي بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَن يَأْتُونِي مُسْلِمِينَ* قَالَ عِفْرِيتٌ مِّنَ الْجِنِّ أَنَا آتِيكَ

بِهِ قَبْلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ وَإِنِّي عَلَيْهِ لَقَوِيٌّ أَمِينٌ* قَالَ الَّذِي عِندَهُ عِلْمٌ مِّنَ الْكِتَابِ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ فَلَمَّا رَآهُ مُسْتَقِرّاً عِندَهُ قَالَ هَذَا مِن فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ﴾.

****

تسخير العلم المادي في الدعوة إلى الله

ثم إننا القصة تعطينا الدرس في الاستفادة من العلم المادي، وعدم الركون إلى العلم الشرعي في بناء المجتمعات، ونشر الحضارات، وذلك من خلال قول سليمان عليه السلام ــ وهو النبي صاحب المعجزات ــ ﴿ نَكِّرُوا لَهَا عَرْشَهَا نَنظُرْ أَتَهْتَدِي أَمْ تَكُونُ مِنَ الَّذِينَ لَا يَهْتَدُونَ*﴾.

ثم إنه أراد أن يفصح لها عما عنده من العلم، فقال لها ﴿ ادْخُلِي الصَّرْحَ فَلَمَّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجَّةً وَكَشَفَتْ عَن سَاقَيْهَا قَالَ إِنَّهُ صَرْحٌ مُّمَرَّدٌ مِّن قَوَارِيرَ﴾.

وقد كان أثر ذلك أن استضاء قلب المرأة بالإيمان. فقالت ﴿ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾.

****

القوة في ضوء القصة

يقوم الملك العظيم على دعامتين كبيرتين؛ هما العلم والقوة.

والعلم ــ كما سبق ذكره ــ نور العقول والقلوب، وهو الوسيلة إلى معرفة قوانين الوجود، وسنن الطبيعة، لتسخير ما يمكن تسخيره منها في منافع الدولة.

وأما القوة فإنها تجمع قوة الأبدان، وتشمل كثافة الجنود المدربين، ووفرة الأسلحة والآلات، التي تستخدم في مواجهة العدو. والتي نستعين بها في تبليغ دعوة الله تعالى، ونشر الحرية والعدل.

وهذا أصل صالح من أصول الدولة. ذكره الله تعالى في مواضع كثيرة من كتابه الكريم. وأشار إلى أهميته في حياة الأمم، عندما قال على لسان طالوت ﴿ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ وَاللَّهُ يُؤْتِي مُلْكَهُ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ* ﴾ البقرة(٢٤٧).

****

وقد أسهبت قصتنا هذه في الحديث عن القوة. وأشارت إلى أهميتها في نشر الرسالة، وإقامة الحضارة في كثير من مشاهدها. فقد كان سليمان عليه السلام حريصاً على أن يكون مجتمعه مجتمعاً قوياً. إيماناً منه بأن الحق بدون قوة حق أعرج. وأن العقيدة التي لا يدافع عنها أصحابها عقيدة ضائعة.

ولهذا شرع الإسلام الجهاد، وأباح للمسلين استخدام القوة. قال تعالى ﴿وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدْوَّ اللّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لاَ تَعْلَمُونَهُمُ اللّهُ يَعْلَمُهُمْ﴾ الأنفال(٦٠).

غير أن القوة في الإسلام ليست بالقوة الهمجية، التي تقوم على قهر

الشعوب، واحتلال الأرض، وسلب المال، وانتهاك العرض. وإنما شرعت القوة في الإسلام لحماية العقيدة، وصيانة العرض، وحفظ النفس، وسلامة الأرض.

شرعت القوة في الإسلام لتحرير الإنسان من رق العبودية للإنسان، وغيره من الطواغيت التي عبدت من دون الله تعالى.

وفي هذا الإطار جاءت القوة في قصة سليمان عليه السلام فهي تبدو واضحة في معالمها، وضوابطها، والثمرة المرجوة منها، وأهميتها في تكوين الدولة المسلمة.

****

وأول ما يلفت نظرنا إلى عناية القصة بالقوة هو قول سليمان عليه السلام ﴿ وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَيْءٍ﴾ أي: من كل ما يحتاج إليه الملوك في حكمهم. فأي قوة تهزم هذه القوة؟ وأي جيش يقهر جيشاً أوتي قائده كل ما يحتاج إليه؟

ثم أشارت الآيات بإيجاز، وتصوير رائع إلى وفرة هذه القوة، وكثرة عددها، وما تمتاز به ــ مع اختلاف أجناسها ــ من نظام دقيق، وترتيب محكم وعميق. فقال تعالى ﴿ وَحُشِرَ لِسُلَيْمَانَ جُنُودُهُ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ وَالطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ*﴾.

إنه الجيش القوي المنظم، الذي يعرف كل جندي من جنوده دوره، وما يقوم به. إنه الجيش المؤلف من أجناس مختلفة؛ من إنس وجن وطير. وهو مع قوته وكثرته يدين بالولاء للرئيس الأعلى.

انظر كيف أسرع الهدهد بالرسالة إلى ملكة سبأ، فقطع هذه المسافة المترامية، ما بين فلسطين واليمن ؟ وكيف استجاب الملأ من قوم سليمان عليه السلام فأحضروا له العرش في غمضة عين.

وقد كان مجتمع سليمان عليه السلام مجتمعاً قوياً، يتفاضل أفراده ــ من الجنود

والحاشية ــ في هذه القوة. وقد أدرك عليه السلام ذلك. فقال ﴿ يَا أَيُّهَا المَلَأُ أَيُّكُمْ يَأْتِينِي بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَن يَأْتُونِي مُسْلِمِينَ﴾.

هكذا (أيكم) دون تحديد لواحد منهم. فهو لا يسأل عن قدرتهم على ذلك ــ لأنه يعلم أنه جميعاً قادرون ــ وإنما يسأل عمن هو أقدرهم، وأسرعهم مجيئاً به.

ولهذا قال الجني ﴿ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ وَإِنِّي عَلَيْهِ لَقَوِيٌّ أَمِينٌ﴾ وقال الذي عنده علم من الكتاب ﴿ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ فَلَمَّا رَآهُ مُسْتَقِرّاً عِندَهُ قَالَ هَذَا مِن فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ﴾.

فما أسعد المجتمع بالأقوياء، من أبنائه، وما أشقاه بالضعاف، الذين لا ينصرون صديقاً، ولا يخفرون عدواً، فلا تقوم بهم نهضة، أو ترفع بهم راية.

قوة من نوع آخر

وقد أشار القرآن الكريم في آيات عديدة إلى أن الله تعالى أيد سليمان عليه السلام بجنود من نوع آخر. قال تعالى ﴿ وَلِسُلَيْمَانَ الرِّيحَ غُدُوُّهَا شَهْرٌ وَرَوَاحُهَا شَهْرٌ وَأَسَلْنَا لَهُ عَيْنَ الْقِطْرِ وَمِنَ الْجِنِّ مَن يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِ وَمَن يَزِغْ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنَا نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ السَّعِيرِ﴾ سبأ(١٠).

﴿ وَلِسُلَيْمَانَ الرِّيحَ عَاصِفَةً تَجْرِي بِأَمْرِهِ إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا وَكُنَّا بِكُلِّ شَيْءٍ عَالِمِينَ* وَمِنَ الشَّيَاطِينِ مَن يَغُوصُونَ لَهُ وَيَعْمَلُونَ عَمَلاً دُونَ ذَلِكَ وَكُنَّا لَهُمْ حَافِظِينَ *﴾ الأنبياء(٧٩ ــ ٨٢) ﴿فَسَخَّرْنَا لَهُ الرِّيحَ تَجْرِي بِأَمْرِهِ رُخَاء حَيْثُ أَصَابَ وَالشَّيَاطِينَ كُلَّ بَنَّاء وَغَوَّاصٍ﴾ ص(٣٤ــ ٣٩).

لقد آمن سليمان عليه السلام لله تعالى في غيبه، فأيده الله تعالى بقوى الغيب من

الجن، كما أيد محمداً ﷺ بقوى الغيب من الملائكة. قال تعالى ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ الْمَلآئِكَةِ مُرْدِفِينَ﴾ الأنفال (٩) وقال سبحانه ﴿إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلآئِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُواْ الَّذِينَ آمَنُواْ سَأُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُواْ الرَّعْبَ فَاضْرِبُواْ فَوْقَ الأَعْنَاقِ وَاضْرِبُواْ مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ﴾ الأنفال١٢ وقال سبحانه ﴿وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا﴾ التوبة (٤١).

* * * * * * * * * * * * * * * * * * * *

وقد كان سليمان عليه السلام يعرف قدر قوته، ويعرف كذلك مصدرها وسرها، ويؤمن بأنها قوة لا يقف دونها شيء، وأنها لن تغلب أبداً، ولن تقهر. لأنها مؤيدة بنصر الله تعالى ومعيته. فيقول في رسالته لأهل سبأ ﴿أَلَّا تَعْلُوا عَلَيَّ وَأْتُونِي مُسْلِمِينَ*﴾ ويرد الهدية بقوله ﴿ارْجِعْ إِلَيْهِمْ فَلَنَأْتِيَنَّهُمْ بِجُنُودٍ لَّا قِبَلَ لَهُم بِهَا وَلَنُخْرِجَنَّهُم مِّنْهَا أَذِلَّةً وَهُمْ صَاغِرُونَ*﴾.

فهذه القوة ــ فضلاً عن كونها قوة كبيرة مؤلفة من أجناس مختلفة ــ كانت تتمتع بتأييد قوة كبرى. إنها قوة الحق، المستمدة من قوة الملك الجبار. فما عسى أن تكون قوة البشر أمام قوة رب البشر؟.

فقوة المسلم الحقيقية هي التي يكون مبعثها العقيدة الإسلامية، والقوة الربانية. وعلى قدر نصيب المرء من الإيمان، وثقته في تأييد ربه ونصره، يكون نصيبه من تلك القوة. نرى ذلك بارزاً في موقف أبي بكر رضي الله عنه ــ أرجح المؤمنين ميزاناً بعد رسول الله ﷺ ــ فقد تمثلت قوته في مواقف جعلت عمر الشديد الجبار، يقول: والله لو وزن إيمان أبي بكر بإيمان هذه الأمة لرجح.

انظر إلى موقفه من موت رسول ﷺ فإنه يقول ــ وهو أحب الناس إليه، وأكثرهم مصاباً بموته ــ أيها الناس، من كان يعبد محمداً، فإن محمداً قد مات.

ومن كان يعبد الله، فإن الله حي لا يموت.

ثم انظر إلى موقفه من حرب المرتدين، ومانعي الزكاة. وقد كان المسلمون كالغنم في الليلة المطيرة. حتى قال بعضهم: يا خليفة رسول الله، لا طاقة لك بقتال العرب جميعاً، إلزام بيتك، وأغلق بابك، واعبد ربك حتى يأتيك القين.

ولكن أبا بكر البكاء الرقيق، الرحيم، ينقلب في لحظة أسداً زائراً، ويصيح في وجه عمر؛ أجبار في الجاهلية خوار في الإسلام يا ابن الخطاب!؟ لقد تم الوحي واكتمل، أفينقص وأنا حي؟ والله لو منعوني عقال بعير كانوا يؤدونه لرسول الله ﷺ لقاتلتهم عليه، ما أمسك السيف بيدي.

وقد فطنت ملكة سبأ إلى هذا المعنى، فأرادت أن تختبر هذه القوة. فقالت ﴿ إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوا أَعِزَّةَ أَهْلِهَا أَذِلَّةً وَكَذَلِكَ يَفْعَلُونَ* وَإِنِّي مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِم بِهَدِيَّةٍ فَنَاظِرَةٌ بِمَ يَرْجِعُ الْمُرْسَلُونَ*﴾ فلما تيقنت أن هذا الرجل من أصحاب الدعوات، وأنه ولن يقبل إلا الإيمان بما يؤمن به، سلمت له، وأسلمت معه. فقالت ﴿ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾.

وهي لم تقل ذلك عن ضعف، كيف وهي التي قال لها ملؤها ﴿ نَحْنُ أُولُوا قُوَّةٍ وَأُولُوا بَأْسٍ شَدِيدٍ وَالْأَمْرُ إِلَيْكِ فَانظُرِي مَاذَا تَأْمُرِينَ﴾. وإنما قالت ذلك إيماناً منها بأن هذه القوة أكبر، وأعظم من أن تهزمها قوة البشر مهما بلغت.

****

قوة القائد دليل على قوة الدولة

وإذا كانت قوة القائد أبرز دليل على قوة الدولة، فإننا نرى قوة سليمان عليه السلام في القيادة والحزم بارزة في هذه القصة.

انظر إلى قوله تعالى ﴿ وَتَفَقَّدَ الطَّيْرَ فَقَالَ مَا لِيَ لَا أَرَى الْهُدْهُدَ أَمْ كَانَ مِنَ الْغَائِبِينَ* لَأُعَذِّبَنَّهُ عَذَاباً شَدِيداً أَوْ لَأَذْبَحَنَّهُ أَوْ لَيَأْتِيَنِّي بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ*﴾

ثم إلى قوله في رسالته لأهل اليمن ﴿ أَلَّا تَعْلُوا عَلَيَّ وَأْتُونِي مُسْلِمِينَ*﴾

وقوله ﴿ارْجِعْ إِلَيْهِمْ فَلَنَأْتِيَنَّهُمْ بِجُنُودٍ لَّا قِبَلَ لَهُم بِهَا وَلَنُخْرِجَنَّهُم مِّنْهَا أَذِلَّةً وَهُمْ صَاغِرُونَ*﴾ فإن هذه الآيات خير شاهد على حزم سليمان عليه السلام وقوته.

****

وقد كان الحزم صفة ملازمة لسليمان عليه السلام إذ كان يعاقب المسيء، ويؤاخذ المقصر. قال تعالى (وَمِنَ الْجِنِّ مَن يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِ وَمَن يَزِغْ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنَا نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ السَّعِيرِ﴾ ﴿ وَآخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِي الْأَصْفَادِ ﴾ ص (٣٤ ـ ٣٩).

وقد كان لهذا الحزم، وهذه القوة أثر في إتقان العمل، وبناء هذه الدولة في حياته وبعد موته عليه السلام قال تعالى ﴿ وَمِنَ الشَّيَاطِينِ مَن يَغُوصُونَ لَهُ وَيَعْمَلُونَ عَمَلاً دُونَ ذَلِكَ وَكُنَّا لَهُمْ حَافِظِينَ*﴾ الأنبياء(٧٨ ـ ٨٢) ﴿يَعْمَلُونَ لَهُ مَا يَشَاءُ مِن مَّحَارِيبَ وَتَمَاثِيلَ وَجِفَانٍ كَالْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَّاسِيَاتٍ اعْمَلُوا آلَ دَاوُودَ شُكْراً وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ﴾ ﴿ وَالشَّيَاطِينَ كُلَّ بَنَّاء وَغَوَّاصٍ*﴾ ص(٣٤ ـ ٣٩).

وقد ظلت الجن تعمل بأمر سليمان عليه السلام فيما كلفها به، وهي لا تعلم نبأ موته، وما دلهم على ذلك إلا أكلة الأرضة لعصاه، التي كان مرتكزاً عليها ﴿ فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ الْمَوْتَ مَا دَلَّهُمْ عَلَى مَوْتِهِ إِلَّا دَابَّةُ الْأَرْضِ تَأْكُلُ مِنسَأَتَهُ فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ الْجِنُّ أَن لَّوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ الْغَيْبَ مَا لَبِثُوا فِي الْعَذَابِ الْمُهِينِ*﴾ سبأ(١٠ ـ ١٤).

****

قوة ورحمة

ومما يلفت نظرنا في قوة سليمان عليه السلام أيضا أن هذه القوة ــ مع كثرتها، ووفرتها ــ ليست بالقوة الظالمة الغاشمة، التي تبطش بالأبرياء، وتعبث بالضعفاء. إنما هي قوة رحيمة، سخرت لخير البشرية، وخدمتها. يرشدك إلى ذلك قول النملة لأصحابها ﴿لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾.

فقد أوتي هذا الجيش من الكثرة والقوة ما يبعث الرعب في جميع الآفاق، حتى أن الوجل ليتسلل إلى قلوب النمل، فضلاً عن غيره من عالم الأحياء. ولكن النملة أدركت ــ كما أدرك غيرها من سائر الخلائق ــ عدل هذه القوة ورحمتها. وذلك لما رأته من رحمة هذه القوة، وما وسمعته عن عدل قائدها، وأنه قائد عادل لا يظلم أحداً. يدعو إلى الحق، لا إلى الباطل. يستخدم القوة في الخير، لا في الشر. ينشر بها العدل، ويحارب بها الظلم.

ومن أولى بذلك من أنبياء الله ورسله ــ ولعل هذا هو سر افتتاح سليمان عليه السلام في رسالته بـ﴿ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ * ﴾.

فهنا تبرز سمة من سمات القوة في الإسلام، إنها القوة المصحوب بالرحمة.

تلك الرحمة التي جعلت النبي ﷺ يجمع المشركين يوم الفتح. ويقول لهم: يا أهل قريش ماذا تظنون أني فاعل بكم؟ فيقولون: خيراً. أخ كريم وابن أخ كريم. فيقول ﷺ اذهبوا فأنتم الطلقاء.

وهذه الرحمة هي التي كانت تدفعه ﷺ أن يوصي أصحابه في الغزوات بألا يقتلوا النساء العجائز والصبيان، وينهاهم عن إحراق الزرع، وهدم البيوت، وقطع الشجر، وعدم التعرض للأحبار والرهبان؛ الدين يتعبدون في الكنائس

والأديرة.

وصدق الله إذ يقول ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ الأنبياء(١٠٧).

****

الرسالة في ضوء قصة

لكل أمة رسالة تؤمن بها، وعقيدة تدعو إليها. ولكل دولة حضارة، تسعى لنشرها بين العالمين.

وقد قامت حضارات شتى على الإلحاد، وإشاعة الفحشاء والمنكر، ونشر الرذائل بين الشعوب.

وأكثر الأمم تصرف رسالتها إلى اتساع الملك، وكثرة المستعمرات، وسلب الأموال والثروات. كما هو شأن الحضارة اليونانية والرومية والفارسية في الماضي. والحضارة الأوربية والأمريكية في الحاضر.

وهذا المعنى تراه واضحاً في كل العصور التي دانت القوة فيها لغير المسلمين. وقد صاغت ملكة سبأ هذا المعنى بقولها ﴿ إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوا أَعِزَّةَ أَهْلِهَا أَذِلَّةً وَكَذَلِكَ يَفْعَلُونَ*﴾.

رسالة الدولة الفاضلة

وأما رسالة الدولة الإسلامية فإنها أرفع من ذلك وأجل، وأسمى منه وأعظم. لأن الله تعالى هو الذي يرسم لها رسالتها، ويحدد لها هدفها. والله تعالى أرفع من أن يرسم لأوليائه مثل هذه المخازي. وأكبر من أن يسخر أوليائه لمثل هذه المآسي.

إن الرسالة النبيلة، والغاية الفاضلة التي أمر الله تعالى الأمة المسلمة أن تعيش لها، وأن تعمل لنشرها هي توحيده تعالى، وتحرير الناس من عبادة غيره، وتطهير الأرض من كل رجس وشرك، وإشاعة العدل، ونشر المساواة بين العالمين. لتكون كلمة الله هي العليا، ويكون الدين كله لله.

قال تعالى ﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولاً أَنِ اعْبُدُواْ اللّهَ وَاجْتَنِبُواْ الطَّاغُوتَ﴾ النحل(٣٦) ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾ الأنبياء (٢٥).

وقد أثنى الله تعالى على الذين يعملون لتحقيق هذا الهدف، ونشر هذه الرسالة. فقال تعالى ﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللّهِ﴾ آل عمران(١١٠).

﴿الَّذِينَ إِن مَّكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنكَرِ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ*﴾ الحج(٤١).

﴿ تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوّاً فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَاداً وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ القصص(٨٣).

كما أثنى على ذي القرنين، ذلك القائد الصالح الذي استخدم قوته في نشر الإيمان، وإشاعة العدل في الأرض. ﴿ قَالَ أَمَّا مَن ظَلَمَ فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَى رَبِّهِ فَيُعَذِّبُهُ عَذَاباً نُّكْراً* وَأَمَّا مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحاً فَلَهُ جَزَاء الْحُسْنَى وَسَنَقُولُ لَهُ مِنْ أَمْرِنَا يُسْراً﴾ الكهف (٨٦ ــ ٨٨).

****

تعاون المجتمع في نشر رسالة الدولة

لقد عرضت القصة الكريمة لرسالة الدولة المؤمنة في أكثر من موضع من مواضعها. بل إننا لنجد المجتمع كله قد تفاعل وتعاون على تبليغ هذه الدعوة، ونشر هذه الرسالة.

فهذا سليمان عليه السلام ـ وهو رئيس الدولة ـ يسعى جاهداً لتحقيق هذه الغاية، والعمل لها. وقد ظهر لنا ذلك من خلال مواقفه المتعددة في القصة الكريمة.

فهو يرسل كتاباً موجزاً، إلى أهل سبأ، يدعوهم من خلاله إلى الإيمان بالله تعالى، ويبدأه بـ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ* أَلَّا تَعْلُوا عَلَيَّ وَأْتُونِي مُسْلِمِينَ﴾.

ويظل عليه السلام يعمل جاهداً لينزلهم على حكم الإسلام. فيدعوهم ـ أولاً ـ بالتي هي أحسن. فلما أرسلوا إليه الهدايا ـ واستشعر أنهم لا يريدون الدخول في الإسلام، وأنهم يريدون شراءه بالمال ـ أعلن عن القيمة الحقيقة للإسلام. وأنه أغلى من كنوز الدنيا كلها، فرد الهدية وقال ﴿ أَتُمِدُّونَنِ بِمَالٍ فَمَا آتَانِيَ اللَّهُ خَيْرٌ مِّمَّا آتَاكُم بَلْ أَنتُم بِهَدِيَّتِكُمْ تَفْرَحُونَ﴾. ثم أعلن عزمه على استخدام القوة. فقال ﴿ ارْجِعْ إِلَيْهِمْ فَلَنَأْتِيَنَّهُمْ بِجُنُودٍ لَّا قِبَلَ لَهُم بِهَا وَلَنُخْرِجَنَّهُم مِّنْهَا أَذِلَّةً وَهُمْ صَاغِرُونَ﴾.

وهذا هو منهج الدعاة إلى الله تعالى في كل زمان ومكان.

فلم يبدأ المسلمون أحداً بقتال. وإنما كانوا يدعون الناس إلى الإسلام أولاً بالتي هي أحسن، فإن أسلموا بها ونعمت. وإلا فالجزية، ويكون لهم ما للمسلمين، وعليهم ما على المسلمين. فإن أبو فلا مناص من الحرب والجهاد.

يقول شيخنا البهي الخولي "يجب إقامة النظم السياسية والتشريعية والعلمية

التي تكفل استقرار الناس في ظلال هذه الغاية، فإن استقرت بالتي هي أحسن فبها ونعمت، وإن استعصى ذلك على الوسائل السلبية، فلنتدرع بالتي هي أحسن أيضاً.

وليس أحسن في ذلك من استخدام القوة. ولهذا قال تعالى ﴿ وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لاَ تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ لِلّهِ فَإِنِ انتَهَواْ فَلاَ عُدْوَانَ إِلاَّ عَلَى الظَّالِمِينَ* ﴾ البقرة(١٩٣).

أن هدف الإسلام من حروبه وقتاله ليس سفك الدماء، ولا حمل الناس على الإيمان كرهاً. لأن القاعدة في الإسلام ﴿ لاَ إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ ﴾ البقرة(٢٥٦). وإنما يهدف الإسلام من الجهاد، إزالة العقبة التي تحول دون تبليغ شرع الله تعالى. ﴿فَقَاتِلُواْ أَئِمَّةَ الْكُفْرِ إِنَّهُمْ لاَ أَيْمَانَ لَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَنتَهُونَ* ﴾ التوبة(١٢). ﴿ قَاتِلُواْ الَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ بِاللّهِ وَلاَ بِالْيَوْمِ الآخِرِ وَلاَ يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللّهُ وَرَسُولُهُ وَلاَ يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُواْ الْكِتَابَ حَتَّى يُعْطُواْ الْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ* ﴾ التوبة(٢٩).

****

وما زال سليمان عليه السلام يعمل جاهداً على إنقاذ هذه الأمة من ظلمات الكفر إلى نور التوحيد، ودعوتهم إلى الإيمان بالله تعالى، والإسلام معه. ويسخر ــ لأجل ذلك ــ ما عنده من علم وجنود. فيطلب من حاشيته ــ وقد علم بمجيء الملكة ــ أن يأتوه بعرشها، ليكون ذلك بمثابة آية تدهش القوم، لتلين بها قلوبهم، فتحملهم حملاً على الإيمان بالله تعالى. فقال للملأ من حوله ــ وهم أرباب القوة العجيبة، وأهل العلم بأسرار الوجود ﴿ أَيُّكُمْ يَأْتِينِي بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَن يَأْتُونِي مُسْلِمِينَ* ﴾.

ثم يطلب منهم أن يغيروا بعض الملامح المميزة لهذا العرش، ويعلن عن الهدف من ذلك فيقول ﴿ نَكِّرُوا لَهَا عَرْشَهَا نَنظُرْ أَتَهْتَدِي أَمْ تَكُونُ مِنَ الَّذِينَ لَا

يَهْتَدُونَ*﴾.

ثم يأمر الجنود ببناء قصر من البلور، وأن يجعلوا أراضيه فوق الماء، فإذا رآه من لم يعرف أمره حسب أنه ماء. فلما جاءت الملكة قال لها ﴿ ادْخُلِي الصَّرْحَ فَلَمَّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجَّةً وَكَشَفَتْ عَن سَاقَيْهَا قَالَ إِنَّهُ صَرْحٌ مُّمَرَّدٌ مِّن قَوَارِيرَ﴾.

فلم تملك الملكة أما هذه الآيات إلا أن تعلن الإيمان بالله، والإسلام مع سليمان عليه السلام فقالت ﴿ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ*﴾.

****

ثم انظر إليه وهو يعلن هذه الرسالة في كل مشهد من مشاهد القصة، فهو يجعل الحمد شعاراً له في كل أحواله، فيحمد الله على نعمة العلم التي فضل بها، فيردد مع أبيه هذا الشعار ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي فَضَّلَنَا عَلَى كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ*﴾.

ويرد العلم إلى مصدره، فيقول ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ عُلِّمْنَا مَنطِقَ الطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَيْءٍ إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْفَضْلُ الْمُبِينُ*﴾.

ثم يعقب على ما سمعه من حديث النملة بقوله ﴿ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَى وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحاً تَرْضَاهُ وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ*﴾.

ولما رأى العرش مستقراً عنده قال ﴿ هَذَا مِن فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ ﴾.

فهو في كل أحواله يرفع شعار الإسلام، ويكثر من الحمد والشكر لله، لأن (الحمد لله) ابتداء، و(الحمد لله) ختاماً قاعدة من قواعد التصور الإسلامي المباشر ﴿وَهُوَ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لَهُ الْحَمْدُ فِي الْأُولَى وَالْآخِرَةِ وَلَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ*﴾ القصص (٧٠).

و(الحمد لله) هو الشعار الذي يرفعه الكون كله، والأنشودة التي تتغنى بها الخلائق جميعاً، إعلاناً عن إيمانه بالله، وعرفاً بالجميل لخالقه. ورضاه عن ربه في حكمه وقضائه وقدره، وشكره لكل أوامره، وتسليمه له، وتوكله عليه سبحانه. ولهذا قال تعالى ﴿ فَلِلَّهِ الْحَمْدُ رَبِّ السَّمَاوَاتِ وَرَبِّ الْأَرْضِ رَبِّ الْعَالَمِينَ*﴾ الجاثية (٣٦).

****

ثم إننا لنرى الهدهد ــ وهو أحد جند سليمان ــ كيف كان فاهماً لرسالة دولته، حريصاً على نشرها، فيسخر إمكانته لنشر هذه الرسالة، ويسعى في الأرض لدعوة الناس إلى التوحيد، وإخراجهم من ظلمات الكفر إلى نور الإيمان.

فيقول لسليمان عليه السلام ــ وهو يعلم حرصه على نشر التوحيد في الأرض ــ ﴿أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِ وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍ بِنَبَإٍ يَقِينٍ* إِنِّي وَجَدتُّ امْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ*﴾.

ثم يقول منكراً عليهم هذا الكفر ﴿ وَجَدتُّهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِن دُونِ اللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ*﴾.

ونراه ــ بعد أن أنكر المنكر ــ يدعو إلى العقيدة الصحيحة التي يجب أن تدين بها البشرية جمعاً، فيقول ﴿ أَلَّا يَسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي يُخْرِجُ الْخَبْءَ فِي

السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ*اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ*﴾.

****

كما أننا نرى حرص الملاء من قوم سليمان عليه السلام على نشر رسالة الدولة، وتعاونهم مع القائد في ذلك.

فما أن طلب منهم سليمان عليه السلام أن يأتوه بعرشها، حتى تسابقوا بما عندهم من العلم، والقوة لخدمة الدعوة، وإنقاذ الناس من الكفر إلى الإيمان ﴿قَالَ عِفْرِيتٌ مِّنَ الْجِنِّ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ وَإِنِّي عَلَيْهِ لَقَوِيٌّ أَمِينٌ* قَالَ الَّذِي عِندَهُ عِلْمٌ مِّنَ الْكِتَابِ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ﴾.

فالملأ من قوم سليمان عليه السلام أصحاب علم ودعوة، وليسوا بأصحاب النفوذ والمال، الذين يسيطرون على مقاليد الأمور في الدولة، ولا صلة لهم بالعلم، ولا قوة لهم إلا أموالهم، ولا هدف لهم إلا أغراضهم الخاصة، وإن ترتب على ذلك موت الشعوب، وتجويع الأمم.

****

لقد استغل سليمان عليه السلام حركة الهدهد، وعلم الإنسي، وقوة الجني، وما توصلت إليه دولته من علوم في نشر الدعوة، وتبليغ الرسالة.

وهذا هو القائد العادل، والملك الصالح الذي ينتفع بموارد دولته، فيستخدمها في نشر رسالة ربه، وتبليغ دعوته.

****

إيمان القائد وعنايته بشؤون الدولة

إن الحقيقة الرابعة، التي لا بد منها لصلاح المجتمع ــ والتي تقررت من خلال هذه القصة ــ أن يكون قائد الأمة عالماً بغايتها، مؤمناً بها، عاملاً لها. وأن يكون يقظاً منتبهاً، متعهداً لشؤون رعيته؛ كبيرها وصغيرها، حازماً في محاسبة المسؤل، أيا كان قدره، ومهما كان خطأه، وإلا انحل التناسق في قوى الدولة، وانفرط عقدها.

وقد كان سليمان عليه السلام يقظاً حازماً، متعهداً لشئون دولته، يسأل عن كل أمورها. لأنه يؤمن بأن الرياسة في الإسلام ليست تشريفاً بقدر ما هي تكليف.

أخرج الإمام البخاري عَنْ ابْنِ عُمَرَ رضي الله عنه قال سَمِعْتُ ﷺ يقول (كُلُّكُمْ رَاعٍ وَكُلُّكُمْ مَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ الْإِمَامُ رَاعٍ وَمَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ) (١).

ولله در عمر رضي الله عنه فقد كان يتعهد الرعية، حتى إنه ليسمع الرضيع في الليل يبكي، فيسأل أمه عن بكائه؟ فتجيبه ــ وهي لا تعلم من هو ــ بأن عمر لا يصرف راتباً للرضيع. وأنها فطمت الطفل، لتحصل له على راتب، فيأمر بصرف راتب لكل رضيع، وهو يبكي يقول: كم قتلت من أطفال المسلمين يا عمر؟

ويعلن مسؤوليته عن كل شئون الدولة، بقوله: لو أن بغلة عثرت في طريق العراق لسألني الله لمَ لمْ تصلح لها الطريق يا عمر.

****

(١) أخرجه الإمام البخاري. كتاب الجمعة. باب الجمعة في القرى والمدن ٢/٣٧٩.

وقد أشارت قصتنا هذه ــ في أكثر من موضع ــ إلى إيمان سليمان عليه السلام برسالة الدولة، وعنايته بكل أمورها. انظر إلى قوله تعالى ﴿ وَتَفَقَّدَ الطَّيْرَ فَقَالَ مَا لِيَ لَا أَرَى الْهُدْهُدَ أَمْ كَانَ مِنَ الْغَائِبِينَ* ﴾.

إنها فطنة عجيبة، ويقظة غريبة، إذ يفطن ــ وسط هذه الحشود المؤلفة من الجن والإنس والطير ــ إلى غياب هدهد.

فما قيمة طائر وسط هذه الحشود المؤلفة من هذه الجيوش؟ وما غناء هذا الهدهد إذا حضر، وما مضرته إذا غاب؟ إنها الدقة واليقظة والحزم.

إنه القائد الحكيم الذي يرى أن لكل شيء ــ صغر أو كبر ــ رسالة. ولكل جندي عملاً يجب أن يقوم به. فإذا غاب أو أهمل اختل التناسق في العمل، وأدركه الاضطراب والخلل. ومن ثم يعظم في صدره ما يقع من جرائم الغياب أو التقصير، فيكون حازماً في مؤاخذة أصحابها، مؤاخذة تحمل العذاب الشديد، الذي قد يمتد إلى عقوبة الإعدام ﴿ لَأُعَذِّبَنَّهُ عَذَاباً شَدِيداً أَوْ لَأَذْبَحَنَّهُ أَوْ لَيَأْتِيَنِّي بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ* ﴾.

فهو لا يكتفي بمجرد السؤال عن الهدهد، وإنما يعطينا مثالاً آخر في الحزم والقيادة، وذلك بمحاسبة المقصر في عمله.

ثم إنه لم يأخذ اعتذار الهدهد ــ رغم ثقته فيه ــ قضية مسلمة، ولم يهمله تماماً، بل وضعه موضع التحقيق والاختبار ﴿قَالَ سَنَنظُرُ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ الْكَاذِبِينَ* اذْهَب بِّكِتَابِي هَذَا فَأَلْقِهْ إِلَيْهِمْ ثُمَّ تَوَلَّ عَنْهُمْ فَانظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ*).

وقد اختار الله تعالى لنا هذا المثال من يقظة سليمان عليه السلام وحزمه ليعلمنا أن الذي يعنى بتفقد أمور الطير لا يفوته أن يتفقد ما هو أهم منه وأكبر. وأن الذي

يهتم بصغار الأمور هذا الاهتمام يكون بكبارها أشد رعاية واهتماماً. وأن الذي يحاسب الحساب العسير الحازم على ما قد يبدو تافهاً، لا يمكن أن يفرط على ما يقع من الأخطاء الجسيمة.

وكان ذلك شأن سليمان عليه السلام في أموره كلها. قال تعالى ﴿ وَمِنَ الْجِنِّ مَن يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِ وَمَن يَزِغْ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنَا نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ السَّعِيرِ * ﴾.

وقد كان أثر ذلك ما رأيت من الجدية بين الجنود في حياته وبعد موته ﴿ فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ الْمَوْتَ مَا دَلَّهُمْ عَلَى مَوْتِهِ إِلَّا دَابَّةُ الْأَرْضِ تَأْكُلُ مِنسَأَتَهُ فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ الْجِنُّ أَن لَّوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ الْغَيْبَ مَا لَبِثُوا فِي الْعَذَابِ الْمُهِينِ * ﴾.

وقد يقال: إن ذلك كان سهلاً على سليمان عليه السلام لأنه كان نبياً، يرى بنور الوحي، والنبوة الموصولة بالله تعالى. ومن المستحيل على بشر أن يدرك ذلك؟

وجوابه: إن القائد يجب عليه أن يتخلق بأخلاق الأنبياء عليهم السلام، وأن يتأدب بأدبهم، وأن يداوم على الطاعة، ويبتعد عن المعصية، فيعطيه الله تعالى من نور الإيمان ما يضيء جوانب حياته ﴿ وَاتَّقُواْ اللّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللّهُ ﴾ البقرة (٢٨٢).

وعلى كل فقد ذكر الله تعالى هذا الموقف ليضرب لنا مثالاً على يقظة الحاكم المسلم، واهتمامه بأمر رعيته.

يقول الإمام القرطبي "وفي الآية دليل على تفقد الإمام أحوال رعيته، والمحافظة عليهم، فانظر إلى الهدهد ــ مع صغره ــ كيف لم يخف على سليمان حاله، فكيف بعظام الملك؟ ويرحم الله عمر، فإنه ــ كان على سيرته ــ قال: لو أن سخلة على شاطئ الفرات أخذها الذئب ليسأل عنها عمر. فما ظنك بوال

تذهب على يديه البلدان، وتضيع الرعية، ويضيع الرعيان[1].

كما اختار الله تعالى هذا الموقف ليعطينا الدرس في تحقيق العدل، وتجنب المحسوبية. لأن قول سليمان عليه السلام ﴿ لَأُعَذِّبَنَّهُ عَذَاباً شَدِيداً أَوْ لَأَذْبَحَنَّهُ﴾ دليل على عدم المحابة والمحسوبية. وقوله ﴿ أَوْ لَيَأْتِيَنِّي بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ﴾ دليل على عدله، وعدم تسلطه.

والظلم والمحسوبية كلاهما من عوامل هلاك الأمم. والله تعالى ينصر الدولة العادلة ولو كان كافرة، ولا ينصر الدولة الظالمة، ولو كانت مؤمنة.

ولهذا فقد حذر الله تعالى من الظلم، وبين عواقبه في آيات عديدة من آيات القرآن المجيد. قال تعالى ﴿ فَقُطِعَ دَابِرُ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُواْ وَالْحَمْدُ لِلّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ الأنعام(٤٥) ﴿ وَأَخَذْنَا الَّذِينَ ظَلَمُواْ بِعَذَابٍ بَئِيسٍ بِمَا كَانُواْ يَفْسُقُونَ ﴾ الأعراف(١٦٥). ﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ مِن قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُواْ﴾ يونس(١٣) ﴿ وَتِلْكَ الْقُرَى أَهْلَكْنَاهُمْ لَمَّا ظَلَمُوا وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِم مَّوْعِداً﴾ الكهف(٥٩).

كما نهى الإسلام عن الوساطة والمحابة، وذلك فيما فقد أخرجه الإمام البخاري عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا أَنَّ قُرَيْشًا أَهَمَّتْهُمْ الْمَرْأَةُ الْمَخْزُومِيَّةُ الَّتِي سَرَقَتْ فَقَالُوا مَنْ يُكَلِّمُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ وَمَنْ يَجْتَرِئُ عَلَيْهِ إِلَّا أُسَامَةُ بْنُ زَيْدٍ حِبُّ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَكَلَّمَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ.

فَقَالَ (أَتَشْفَعُ فِي حَدٍّ مِنْ حُدُودِ اللَّهِ ثُمَّ قَامَ فَخَطَبَ قَالَ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا ضَلَّ مَنْ قَبْلَكُمْ أَنَّهُمْ كَانُوا إِذَا سَرَقَ الشَّرِيفُ تَرَكُوهُ وَإِذَا سَرَقَ الضَّعِيفُ فِيهِمْ أَقَامُوا عَلَيْهِ الْحَدَّ وَايْمُ اللَّهِ لَوْ أَنَّ فَاطِمَةَ بِنْتَ مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ سَرَقَتْ لَقَطَعَ

---

(١) ((تفسير القرطبي)) ٧/٥٠٦٠.

مُحَمَّدٌ يَدَهَا).

وفي رواية (فَإِنَّمَا هَلَكَ النَّاسُ قَبْلَكُمْ أَنَّهُمْ كَانُوا إِذَا سَرَقَ الشَّرِيفُ فِيهِمْ تَرَكُوهُ وَإِذَا سَرَقَ الضَّعِيفُ فِيهِمْ أَقَامُوا عَلَيْهِ الْحَدَ) (١).

****

وأما إيمان سليمان عليه السلام بالغاية، والعمل لها، وعدم الركون إلى غيرها من مال أو نحوه، فإن ذلك يبدو لنا في هذه القصة ــ كما سبق ذكره ــ من أولها إلى آخرها. فليس له هدف إلا الله، وليس له رسالة إلا نشر دينه على الأرض، وتبليغ دعوته للعالمين.

ويكفي ما حكاه القرآن الكريم هنا عن موقفه هدية ملكة سبأ، ورده لهذا الهدية بقوله ﴿ أتمدونني بمال فما آتاني الله خير مما آتاكم بل أنتم بهديتكم تفرحون﴾.

****

إيمان الشعب برسالة الدولة

وأما الدعامة الخامسة من دعائم المجتمع الصالح ــ كما تصوره لنا القصة ــ فهي إيمان أفراد المجتمع برسالة الدولة، والتفافهم حول قائدهم، وتعاونهم معه على نشر هذه الرسالة. فإن كل ما مضى من ركائز الدولة يصبح عديم الجدوى إذا شذ أفراد الرعية، واتجهوا إلى غير هذا الاتجاه.

وقد ذكرت القصة من إيمان أفراد هذا المجتمع برسالة الدولة، والتفافهم

---

(١) صحيح البخاري. كتاب الحدود باب كراهية الشفاعة في الحد ٨٧/١٢ برقم (٦٧٨٨).

حول قائدهم صورتين.

أما الصورة الأولى:

فهي صورة ذلك الهدهد المجتهد في عمله، المتحمس لنشر عقيدته، حتى إننا لنراه يجوب الأرض مشرقاً ومغرباً في سبيل أداء عمله. لأنه آمن بغايته، فقام بعمله، وأدى واجبه باعتزاز، وثقة، حتى إنه ليقول مخاطباً سليمان عليه السلام هو النبي الملك ﴿ أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِ﴾.

إن خطاب هذا الجندي لقائده ليس خطاب المذنب المقصر، الذي يختلق الأعذار، والذي يبحث عن تعليل إهماله. كلا إنه خطاب الواثق من أفعاله المطمأن لعمله، إنه خطاب الذي رضي عن نفسه، واطمأن لأداء واجبه، فلم يعبأ بعد ذلك أن يخاطب أعظم مخلوق بلغة الحق، ولو كان سليمان عليه السلام حاكم الإنس والجن والطير.

كما أن القصة تشير إلى أن هذا الهدهد ــ كما سبق ذكره ــ لم يقتصر على مجرد البلاغ، ودفع التهمة عن نفسه، وإنما تمتع بالذاتية والإيجابية. فنراه يحث سليمان عليه السلام على أن يقوم بواجب الدعوة، فيقول ﴿ أَلَّا يَسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي يُخْرِجُ الْخَبْءَ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ* اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ*﴾. إنها الذاتية والإيجابية التي تدفع المؤمن دفعاً لأداء واجبه في نشر دعوته.

ولك أن تقارن موقف بين هذا الجندي البسيط، وبين موقف الملأ من قوم سبأ، عندما قالوا لملكتهم ﴿ وَالْأَمْرُ إِلَيْكِ فَانظُرِي مَاذَا تَأْمُرِينَ*﴾. وما جمعتهم المرأة لهذا. وإنما جمعتهم لتسمع منهم، وتستشيرهم في هذا الأمر الجليل.

وهذا ضرب من الرجال لا تقوم بهم دولة، ولا تنهض بهم فكرة، ولا يستقر بهم نظام، ولا يحفظ بهم أمن. فقد هُزمت شخصيتهم أمام شخصية الملكة، إذ ليس لهم عقيدة يؤمنون بها، ولا غاية يسعون لتحقيقها، ولا فكرة يعملون من أجلها. فكم من فرق بين أصحاب المبادئ النبيلة، وبين أولئك الذي لا يعيشون إلا لذاتهم؟

وأما الصورة الثانية:

فهي صورة الملأ، وقد التفوا حول سليمان عليه السلام يساندونه، ويؤيدونه، ويعينونه على مهمته ﴿ قَالَ عِفْرِيتٌ مِّنَ الْجِنِّ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ وَإِنِّي عَلَيْهِ لَقَوِيٌّ أَمِينٌ* قَالَ الَّذِي عِندَهُ عِلْمٌ مِّنَ الْكِتَابِ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ فَلَمَّا رَآهُ مُسْتَقِرّاً عِندَهُ قَالَ هَذَا مِن فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ*﴾.

وشأنهم في ذلك شأن أصحاب رسول الله ﷺ فقد كانوا يلتفون حوله، ويؤيدونه، ويشيرون عليه.

فهذا هو الحباب بن المنذر رضي الله عنه يشير على الرسول ﷺ في غزوة بدر بتغيير المكان الذي نزلوا فيه، فيقول: يا رسول الله أرأيت هذا المنزل، أمنزلاً أنزلكه الله، ليس لنا أن نتقدم فيه، ولا نتأخر عنه أم هو الحرب والرأي والمكيدة؟ فيقول ﷺ بل هو الحرب والرأي والمكيدة. فيقول الحباب: هذا ليس بمنزل، فانهض بالناس، حتى نأتي أدنى ماء من القوم، فننزله، ثم نغور ما وراءه من الآبار، ثم نبني عليه حوضاً، فنملؤه ماء، ثم نقاتل القوم، فنشرب، ولا يشربون.

فنهض رسول الله ﷺ ونزل على رأي الحباب، فتحول إلى المكان الذي أشار به. وقد كان ما علمت من نصر مؤزر على الكافرين.

وهذا سلمان الفارسي ﷺ يشير بحفر الخندق في غزوة الأحزاب، فينزل رسول الله ﷺ على رأيه. وإلى غير ذلك مواقف الصحابة التي لا تحصى في هذا الشأن.

وصدق الله تعالى عندما قال ﴿ هُوَ الَّذِيَ أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِ وَبِالْمُؤْمِنِينَ ﴾ الأنفال(٦٢).

وهذا شأن أصحاب الدعوات الذين يؤمنون بدعوتهم، ويسعون لنشرها، ولو كلفهم ذلك حياتهم ﴿ وَكَأَيِّن مِّن نَّبِيٍّ قَاتَلَ مَعَهُ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُواْ لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللّهِ وَمَا ضَعُفُواْ وَمَا اسْتَكَانُواْ وَاللّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ ﴾ آل عمران(١٤٦).

****

كما أشارت القصة إلى طائفة أخرى من أفراد الشعب، كانت تؤمن برسالة الدولة، وتعين سليمان عليه السلام في أمره. إنهم الجندي المجهول، الذين تذكروا أثاروهم، ولا يذكروا أسماؤهم. إنهم من نكروا العرش، وأقاموا الصرح، وأعانوا سليمان عليه السلام على تحقيق هدفه، حتى أسلمت المرأة مع سليمان لله رب العالمين.

****

الشورى في ضوء القصة

الشورى مبدأ اجتماعي مقرر أصله الإسلام، وجعله قاعدة البناء الاجتماعي الإسلامي. لأن الأحداث التي تقرر مصائر الأمم إلى آماد بعيدة، لا بد فيها من استشارة أهل الرأي، وطلائع الفكر، وذوي الإخلاص والغيرة.

وما لحق أمة الإسلام مما نرى الآن إلا لغياب الشورى الحقيقة من مواقع اتخاذ القرار. ويوم تعود الأمة كما كانت، فسوف نرى قوة هذه الأمة، وعزتها،

ومنعتها، وعودتها لقيادة ركب الحضارة، كما قادته أزماناً متعاقبة.

والأمة التي تغيب فيها الشورى يغيب عنها وعيها.

لأنها عندما تفكر بعقل رجل واحد، وتقرر برأي فرد واحد هو ــ وإن تعددت مواهبه ــ لا يعدو كونه بشراً، يخطي أكثر مما يصيب، أو يتساوى عنده الخطأ والصواب في أحسن الأحوال.

وقد قال الله تعالى لنبيه ﷺ ــ وهو المؤيد بالوحي ــ ﴿ وَشَاوِرْهُمْ فِي الأَمْرِ ﴾ آل عمران(١٥٩)

ومدح فضلاء المؤمنين بقوله ﴿ وَالَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ) الشورى(٣٧).

وكثيراً ما كان النبي ﷺ يقول لأصحابه رضي الله عنهم: أشيروا علي أيها الناس.

فأخذ برأي الحباب في تغيير الموقع العسكري يوم بدر.

ونزل على رأي أصحابه يوم أحد، حين رأى المكث في المدينة، ورأى أغلب القوم أن يلقوا المشركين خارج المدينة. فلما وقعت الهزيمة ما عنفهم، ولا زجرهم، وإنما تعامل معهم بقوله تعالى ﴿ فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللّهِ لِنتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنتَ فَظّاً غَلِيظَ الْقَلْبِ لاَنفَضُّواْ مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللّهِ إِنَّ اللّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ* ﴾ آل عمران (١٥٩).

ونزل على رأي سلمان رضي الله عنه في حفر الخندق. إلى غير ذلك من المشاهد التي لا تحصى من مشورته ﷺ أصحابه، ونزوله على رأيهم.

وقد عرضت القصة الشورى في صورتين.

الصورة الأولى:

صورة بلقيس وهي تعرض على الملأ من قومها رسالة سليمان عليه السلام ﴿ قَالَتْ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَفْتُونِي فِي أَمْرِي مَا كُنتُ قَاطِعَةً أَمْراً حَتَّى تَشْهَدُونِ ﴾.

قالت ذلك لتختبر عزمهم على مقاومة عدوهم، وحزمهم فيما يقيم أمرهم، وإمضاءهم على الطاعة لها. لعلمها بأنهم إن لم يبذلوا أنفسهم وأموالهم ودماءهم دونها لم يكن لها طاقة بمقاومة عدوها. وإن لم يجتمع أمرهم وحزمهم وجدهم كان ذلك عوناً لعدوهم عليهم. وإن لم تختبر ما عندهم، وتعلم قدر عزمهم. لم تكن على بصيرة من أمرهم. فلا شك أن مشاورتهم، وأخذ رأيهم ستكون عوناً على ما تريده من قوة شوكتهم، وشدة مدافعتهم.

ولعل من بركة مشورتها دخولهم في دين الله تعالى، وإسلامه مع سليمان عليه السلام.

الصورة الثانية:

الحوار الذي دار بين سليمان والملأ، فقد ورد هذا الحوار على صورة شورى أكثر منه أمر. فهو يقول لهم ﴿أَيُّكُمْ يَأْتِينِي بِعَرْشِهَا ﴾ دون تعيين أحد منهم، ثم يستمع إلى هذا وذاك، ليصل في النهاية إلى اتخاذ القرار المناسب، فاستقر العرش عنده، وأسلمت الملكة وقومها معه لله رب العالمين.

****

المال في ضوء القصة

على الرغم من أهمية المال في حياة الأمم، فإن القصة لم تقف عنده طويلاً، كما وقفت عند العلم والقوة والرسالة. لأن تأثير المال ــ في إقامة الحضارة،

ونشر الرسالة ــ أقل من تأثير العلم والقوة. فالمال وحده لا يقيم دولة، ولا ينشر حضارة ما لم يكن على أساس علمي سليم.

بل إن المال ــ بدون علم ــ قد يكون وبالاً على الأمم إذا لم يحسنوا استخدامه. قال تعالى ﴿ فَلَمَّا نَسُواْ مَا ذُكِّرُواْ بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى إِذَا فَرِحُواْ بِمَا أُوتُواْ أَخَذْنَاهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ فَقُطِعَ دَابِرُ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُواْ وَالْحَمْدُ لِلّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ الأنعام(٤٤، ٤٥).

وقد عرضت القصة للمال في موقفين.

الموقف الأول:

قول بلقيس ﴿ وَإِنِّي مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِم بِهَدِيَّةٍ فَنَاظِرَةٌ بِمَ يَرْجِعُ الْمُرْسَلُونَ ﴾.

والموقف الثاني:

رد سليمان عليه السلام هذه الهدية بقوله ﴿ أَتُمِدُّونَنِ بِمَالٍ فَمَا آتَانِيَ اللَّهُ خَيْرٌ مِّمَّا آتَاكُم بَلْ أَنتُم بِهَدِيَّتِكُمْ تَفْرَحُونَ ﴾.

فالقصة بذلك تعرض لنا مفهوم المال عند المسلمين وغيرهم.

فإذا كان المال عند غير المسلمين وسيلة للرشوة واللهو والترف. فإنه في نظر الإسلام وسيلة لنشر الرسالة، وإحقاق الحق بين الناس.

وقد ابتلي النبي ﷺ بمثل ما ابتلي به سليمان عليه السلام عندما عرض عليه المشركون المال والملك السيادة. فأعرض عن ذلك كله، وأبى إلا أن يسير في دعوته، حتى انتشر دينه، وأظهره الله على الدين كله.

****

الخاتمة

ونستطيع أن نستخلص من هذه الدراسة عدة أمور. أهمها:

- أن الهدف المنشود من بعثة الأنبياء والمرسلين هو نشر القيم الدينية والإنسانية بين العالمين. وأن دعائم الحضارة الفاضلة تعانق العلم والإيمان، مع التسلح بالقوة، وإشاعة العدل والمساواة بين العالمين.
- أن الرسالة النبيلة، والغاية الفاضلة التي أمر الله الأمة المسلمة أن تعيش لها، وأن تعمل لنشرها هي توحيده تعالى، وتحرير الناس من عبادة ما سوى الله تعالى، وتطهير الأرض من كل رجس وشرك، وإشاعة العدل، ونشر المساواة بين العالمين. لتكون كلمة الله هي العليا، ويكون الدين كله لله.
- أورد الله تعالى صفات المجتمع الفاضل محققة في قصة سليمان عليه السلام ليكون المجتمع الإسلامي مجتمعاً عملياً لا نظرياً، وليكون المسلمون عمليين لا مجرد كلاميين أو نظريين.
- تأثير العلم في نشر الحضارة أقوى من تأثير القوة والمال.
- العلم المطلوب ــ من المنظور الشرعي ــ ليس علماً محدوداً، يتوقف على علوم الشريعة، والأحكام. إنما هو علم واسع، يشمل علوم الدنيا والدين، وكل ما يساعد على توثيق الصلة بالله تعالى، وعمارة الأرض، ونمو الحياة وتقدمها.
- القوة في الإسلام ليست بالقوة الهمجية، التي تقوم على قهر الشعوب، واحتلال الأرض.

- شرعت القوة في الإسلام لحماية العقيدة، وصيانة العرض، وحفظ النفس، وسلامة الأرض. وتحرير الإنسان من رق العبودية لغير الله تعالى.
- القوة في الإسلام مصحوبة بالرحمة والسلام.
- المجتمع الفاضل، هو المجتمع الذي يدرك أبناؤه أن المسؤولية فيه مشتركة بين الحاكم والشعب.
- القرآن الكريم لا يهتم في ذكر القصص بسرد القصة، وتحديد الأسماء والأماكن الواردة فيها، بقدر اهتمامه بإبراز جوانب العظة والعبرة، وما يؤخذ من الآيات.

****

وبعد: فهذا آخر ما تيسر لي كتابه في هذا البحث المتواضع، أسأل الله تعالى أن يغفر لي، وأن يعفو عني. وصلي اللهم وسلم وبارك على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم

****

دكتور/ محمد إبراهيم عبد الحليم

المراجع والمصادر

أولاً: التفسير وعلوم القرآن

[١] ((الإتقان في علوم القرآن)) للحافظ السيوطي. دار الفكر العربي.

[٢] تفسير أبي السعود((إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم)). دار الفكر العربي. بيروت.

[٣] تفسير الألوسي ((روح المعاني في تفسير القرآن والسبع المثاني)). دار الفكر.

[٤] تفسير ابن عاشور ((التحرير والتنوير)) الدار التونسية للطباعة والنشر.

[٥] تفسير ابن كثير ((تفسير القرآن العظيم)) المكتبة التوفيقية.

[٦] تفسير البيضاوي ((أنوار التنزيل وأسرار التأويل)). مكتبة أسامة الإسلامية.

[٧] تفسير الخطيب الشربيني ((السراج المنير في التفسير)). دار الكتب العلمية.

[٨] تفسير الرازي ((مفاتيح الغيب)) دار العد العربي.

[٩] تفسير الزمخشري ((الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل)) دار الكتب العلمية.

[١٠] تفسير الشوكاني ((فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير)) دار الحديث.

[١١] تفسير الطبري ((جامع البيان في تأويل أي القرآن)). دار الغد العربي.

[١٢] تفسير القرطبي ((الجامع لأحكام القرآن)). دار الغد العربي.

[١٣] تفسير النسفي ((مدارك التنزيل وحقائق التأويل)). دار إحياء الكتب العربية. عيسى الحلبي.

[١٤] ((الدر المنثور في التفسير بالمأثور)) للحافظ السيوطي. دار الكتب العلمية.

[١٥] ((اللآلئ الحسان في علوم القرآن)) للدكتور/ موسى شاهين لاشين. دار التأليف.

[١٦] ((في ظلال القرآن)) للأستاذ سيد قطب. دار الشروق.

[١٧] ((مباحث في علوم القرآن)) لمناع القطان.

[١٨] ((المدخل إلى التفسير الموضوعي)) د/عبد الستار فتح الله سعيد. دار التوزيع والنشر.

ثانيًا: الحديث وعلومه

[١] ((سنن ابن ماجه)). دار الريان للتراث.

[٢] ((سنن أبي داود)) دار الحديث. القاهرة.

[٣] ((سنن الترمذي)). دار الكتب العلمية. بيروت.

[٤] ((صحيح الإمام البخاري)). المكتبة السلفية.

[٥] ((صحيح الإمام مسلم)). المكتب الثقافي.

[٦] ((مجمع الزوائد ومنبع الفوائد)) للهيثمي. دار الكتب العلمية بيروت.

[٧] ((المستدرك على الصحيحين)) للحاكم النيسابوري.

[٨] دار الكتاب العربي.

[٩] ((مسند الإمام أحمد)). المكتب الإسلامي. بيروت.

[١٠] ((الموطأ)) للإمام مالك.

مراجع أخرى

[١] ((تذكرة الدعاة)) الشيخ/ محمد البهي الخولي. دار التراث.

[٢] ((التصوير الفني للقرآن)) الأستاذ/ سيد قطب. دار الشروق.

[٣] ((خلق المسلم)) للشيخ/محمد الغزالي. مكتبة نهضة مصر.

[٤] ((لسان العرب)) لابن منظور. دار لسان العرب.

[٥] ((الصحاح في اللغة)) للجوهري.

[٦] ((المعجم الوجيـــــز)) مجمع اللغة العربية. الهيئة العامة لشئون

[٧] المطابع الأميرية.

****